

فرنسوا مورياك
تيريز
ديكيرو
روائع الروايات العالمية

تيريز ديكيرو



النص كاملاً

ماريان

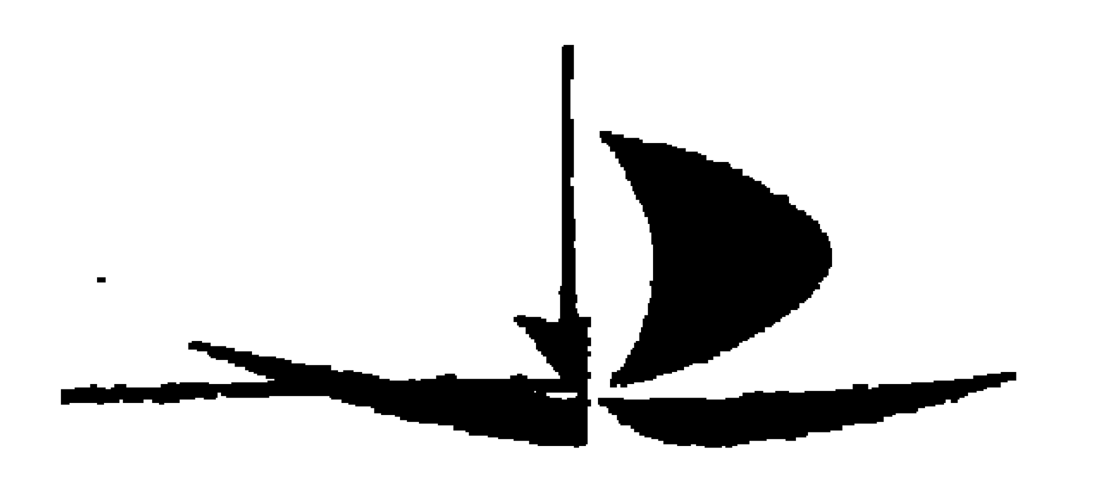
روائع الروايات العالمية

فرنسوا مورياك

تيريز ديكيرو

تعريب

جورج سالـــم



عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ص.ب. ٦٢٨ - تلفاكس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تلفون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١

E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

مدخل الى رواية تيريز ديكيرو

بقلم
ادمون جالو
عضو الاكاديمية الفرنسية

كلما رأى الكاتب أن حظه من النجاح يعظم ، وشعر أن الاعجاب يزداد حوله ، فان خصائصه تسارع الى الظهور . فهو تارة يخشى ان يخيّب امل قرائه الذين يتوقعون شيئاً ممتازاً منه ، ولذلك يعمد الى ان يلم خطواته خشية ان يفزع قراءه ، فيستسلم الى السهولة . وهو يشعر طوراً ، على خلاف هذا ، بأنه أقوى عزيمة ، فيتحرر من الروابط التي كانت تقيده ويجرؤ على المضي قدماً في التعبير عن أفكاره ، وينغمر في مغامرات اكثر جرأة . وهذه هي حال فرنسوا مورياك . ان كل رواية من رواياته هي وثبة الى الامام ، وانتصار على ذاته ، على خجله وتعثر خطواته الاولى . وهاهوذا يجرؤ الآن على ان يخطو الى الامام فيعالج أعمق المواضيع أو أكثرها صعوبة يدعمه اعجاب لا يني يتزايد [1] . وان رواية

١) كتبت هذه الدراسة غداة نشر مورياك روايته عام ١٩٢٧

تيريز ديكيرو لمن هذه الروايات . . . يدور موضوع الرواية حول امرأة قاتلة مسممة ، وكل الكتاب يعالج قصة التسميم هذه . انني أحب جرأة موریاك ، فهو لا يختصر مشهداً أو صعوبة قط ، ولا يصنع صنيع عدد كبير من الكتاب الذين يظهرون لنا بطل الرواية دائماً . قبل اللحظة الحاسمة أو بعدها ، بينما تجري القصة بين الكواليس . ولكي يجعل موریاك عمله ادعى الى الزلل ، وأكثر صعوبة ، فقد وقف الى جانب القاتلة . فهو يحكم على الحدث كله من خلالهـا . انه لا يضمر أية شفقة للزوج ولا لاسرته ، واذا كان يشعر بشيء من الحنو فذاك نحو بطلته . وان جهوده كلها لتنصب لا لتبرئتها بل لشرح نفسيتها . تُرى ، هل وفق الى ذلك ؟ لست ادري ، ولا أستطيع ان أجيب عن هذا السؤال الآن . سأعود الى هذا الكتاب بعد عدة سنوات ، وسأعيد قراءته . وربما أتيح لي ان اعرف آنذاك هل قال موریاك كل ما كان يجب ان يقوله . ان في كتاب يصدر حديثاً شيئاً يانعاً ، ولا بدّ له من ان ينضج نفسه بنفسه ، وان يدع للحياة الخاصة التي فيه أن تتطور . وبعد ذلك بزمن طويل تتحدد كثافته الحقيقية . وإذا كان النقاد يخطئون أحياناً فهذا سبب خطأهم . وإذا كنا نمنح استحساننا ، اغلب الحين ، لآثار لا يعرف احد عنوانها بعد عشرة اعوام أو خمسة عشر عاماً فما ذاك الا لأن كثيراً من الكتب تمتاز بدفقة من الشباب تسحر القراء إبّان ظهورها ، ثم لا تلبث أن تمر سراعاً ككل شيء شاب ، ولا يبقى منها شيء في النفس بعد ساعات من قراءتها . ويتساءل المرء بدهشة : « كيف احببت هذا الكتاب ؟ » وليس في حبه ما يدعو إلى الخجل . ولكن إذا كان الكاتب لم يضع في أثره إلا شبابه ولا شيء آخر مما يجعل الآثار تعيش ، فليس هذا بخطأ الناقد .

ان روايات فرنسوا موریاك هي بالتدقيق آثار فيها أمور اخرى غير

حيّا الشباب . انها كتب ذات قدرة خفية ، تشتمل على نوع من الكثافة الانسانية ، وهذه الكثافة تتطور وتعتمل من تلقاء نفسها كما تتابع الخمرة نضجها في الدنان المحبوسة فيها .

كانت تيريز ديكيرو فتاة كسائر الفتيات أو هكذا تبدو على الأقل . ومع ذلك فقد كانت تشعر بغم وقلق مظلم ، لم تكن تعرف لهما من معنى . وتزوجت من برنار لأنه كان شقيق صديقتها الحميمة ، من جهة ، ولأنه كان يملك ايضاً ألفي هكتار من الاراضي المزروعة بأشجار الصنوبر ، وكان حب التملك في دمها . وهاهما قد تزوجا ، ولم تكن تيريز شقية ، في الواقع ، بهذا الزواج .

ولكنها لم تكن سعيدة كذلك . « فكما اننا ازاء مشهد مغمور تحت الامطـــار نتمثل كيف يكون هذا المشهد في ضوء الشمس ، هكذا اكتشفت تيريز اللذة » . ربما لم يكن باستطاعتها أن تقدّر الى أي حد كانت بحاجة الى الهوى لو لم تؤخذ ابنة حميها آنّ فجأة بالشاب ازفيدو المصاب قليلاً بالسل ، ولو لم تكتب هذه الى تيريز رسائل بلغت فيهـــا عاطفة الحب حداً أدركت معه الى اي درجة تفتقر هي الى هذه العاطفة . وهكذا فان حياتها أخذت تنوء عليها يوماً بعد يوم ، فليس يستطيع المرء ان يخرج شيئاً من برنـــار ؛ هذا الجلف الذي لا يفكر إلا بصيده وصنوبراته . ولقد قررت اسرة لاتراف أن تحول دون زواج آن من جان ازفيدو بأي ثمن . فأرسلت تيريز سفيرة في هذا الموضوع .

رأت تيريز شاباً على قسط لا بأس به من الجمـــال ، لا يتعلق بآن تعلقاً كبيراً ، إلا ان له حياةً خاصة وسط كل هؤلاء الناس الذين لا حيوات لهم ، أولئك الناس الذين يؤلفون سلسلة متشابهة ويشكلون مجتمع تيريز الوحيد . لقد حدثها عن باريس وعن أصدقائه ومطالعاته ، فشعرت بأنه انسان يعيش وبأنها لا تعيش . أهي مغرمة بجان ازفيدو ؟ ليست

تعتقد ذلك . لقد غدا جان ازفيدو بالنسبة اليها رمز حياة حرة وحسب ، رمز حياة مليئة ، كانت تريد ان تعيشها ، وكان كل شيء يفصلها عنها . كانت حاملاً ، فازدادت شعوراً بأن وجودهـا الشخصي غير ذي قيمة ، وانهـا إناء مقدس فقط ، يتلقى ذرية اسرة ديكيرو ، أو هي وسيلة الجنس للاستمرار ، وسيلة غريبة عن هذا الجنس نفسه .. أما برنار الذي كان في الواقع مريض وهم ، والذي لم يكن يتمتع كذلك بصحة جيدة فقد استشار أحد الاطباء فنصحه هذا بتناول بعض نقاط من (الفولر) . وفي يوم شب فيه حريق واختلط الحابل بالنـابل ، عاد برنار الى المنزل وكان قد شرب دواءه ، وظنـاً منه انه نسي أن يشرب الدواء ، عاد فوضع الدواء مرة ثانية في شرابه . صمتت تيريز ازاء هذا الحادث كسلاً وتعباً . ولكنه تعرض في الليل لنوبات شديدة من القيء حتى اضطروا الى احضار الطبيب . الا أن تيريز لم تنبس بحرف . كانت هـذه بداية جريمتها . وراح فكرها يحوم حول هذه الظاهرة . هل اصيب برنار ببداية تسمم لأنه ضاعف كمية الزرنيخ ؟ كانت تريد أن تتحقق من ذلك وأن تعرف هل تأتّى مرضه من ذلك العمل . فأعادت التجربة . وان كل ذلك ليبدو لنا صافياً وعلى قسط كبير من الوضوح . ومع ذلك فحين يرينا فرنسوا مورياك بطلته تيريز تضاعف تدريجيـاً كمية الزرنيخ ، ثم تسقي زوجها ، لكي تنهي الموضوع ، كميات كبيرة جداً من الكلوروفورم والديجاتين والاكونيتين مستعينة بوصفة طبية مزيفة ، فاننا لا نتمالك ان نتساءل أكان هناك مبرر كاف لمثل هذه الجريمة التي تفترض وجود إرادة عنيفة وبطيئة في التحطيم . انني اعرف جيداً ، من ناحية ما ، أن تيريز لم تعد تستطيع تحمل الحياة التي تحياها ، وأن أحد اسباب جريمتهـا هو الملال ، الملال الرهيب في بعض الاماكن الريفية .

ان في باريس عدداً قليلاً من حوادث القتل بالسم . وان المرء ليُشغل

بسرعة عن نواياه ، وكل الجرائم تتم بسرعة . وفي آخر الكتاب حين تترك تيريز ديكيرو زوجها الذي نجـا في الوقت المناسب ، فيسألها هذا لماذا حاولت ان تقتله فإنهـا لا تعرف بماذا تجيب . أو قل انهـا تجيبه بأشياء لا يفهمها . ولكن هل هذه الاشياء مفهومة بالنسبة الينـا ؟ تقول تيريز : « لم أشعر اني رهيبة الا حين كانت يدي تتردد ، كنت أحنق على نفسي اني أطيل عذابك . كان يجب أن امضي الى النهاية وبسرعة ! كنت مذعنة لواجب رهيب ، أجل كان ذلك كواجب عليّ ، كان ذلك واجب رهيب » .

هذه هي الكلمة العميقة التي توضح كل الكتاب ، وهذه هي الكلمة التي تكفي لتثبت لنا ، إن لم يكن قد عرفنا ذلك من قبل ، مقدار الموهبة الروائية الفذة التي يتمتع بها فرنسوا مورياك . ولكن هذا كله ليس إلا تداخلاً وسرعة مكتسبة ، ورغم كل شيء فان شيئاً من الغموض يحوم حول نشأة فكرة تيريز. واذا كان في رواية تيريز ديكيرو نقطة ضعيفة ، فهي هذه . ومن ناحية اخرى ، فانني والحق يقال ، قد قرأت كثيراً من دعاوى الجرائم المشهورة حيث تظهر المجرمات كما صور مورياك بطلته ، اعني قاتلة من غير مـا سبب أو مبرر . كأنهن يخضعن هن ايضاً الى « واجب رهيب » . ولعل فرنسوا مورياك قد خضع دون ان يعلم لمفهوم جانسيني عن الحياة ، وعلى كل فان تيريز ديكيرو هي (فيدر) مورياك . انهـا مخلوقة داعرة أعمق الدعارة بالمعنى العامي الذي نعطيه لهذه الكلمة العامية ، مخلوقة تجذبهـا أسوأ الاعمال فترتكبها وهي لا تكاد تشعر بشناعتها . يقول بودلير في هذه الكلمة التي صدر بهـا مورياك كتابه : « اشفق اللهم على الحمقى والحمقاوات ! » . ان هناك طبائع يحمل اليها الشر نوعاً من الدوار مما يجعل الشر امراً لا يقاوم في نظرها . وفي هذا تفسير تيريز ديكيرو . ولا يقل عن هذا صحة أن نقول ان في هذا المفهوم ،

اللاهوتي الى حد ما ، شيئاً من الوهمية لا أعرفه يضايقني . وكنت اتمنى حقاً ، ما دام الأمر يتعلق بكتاب نفسي ، لو ان فرنسوا موریاك كتب نصف صفحة اخرى كي يشرح لنا فيها كيف انتقلت بطلته من التجربة الاولى الى الثانية .

ولست أعتقد ان موریاك قد كتب يوماً صفحات أكثر جمالاً أو أشد توفيقاً من الصفحات التي يرينا فيها تيريز ديكيرو وقد انقذتها شهادة زوجها ، ومن ثمّ سجنها هذا في منزل تائه في الاراضي الخالية ، تحت مراقبة حارسين ، من غير ما زيارات ولا تسليات بل من غير سجائر أيضاً . ان عذاب الملال والتهدم النفسي والجسمي اللذين تعانيهما بطلته هنا ، في جو من الطبيعة المحرقة الجافة ، قد وُصف ذلك كله بعنف وقوة نجد فيها ميزات الموهبة الفذة التي عرف بها مؤلف رواية (والدة). اعتقد ، اجمالاً ، ان رواية تيريز هي أثر أقل كمالاً من (صحراء الحب) ، ولكن المرء لا يحسب حساباً قط لصعوبة المخاطرة فليس هناك مواضيع أنأى عن السهولة في المعالجة من تيريز ديكيرو ، ولقد خرج موریاك ظافراً من هذه المغامرة الخطرة رغم هذه المآخذ التي تكاد تكون اضطرارية . وان رواية تيريز ديكيرو على كل حال أثر يحتل مكانة أرفع من آثاره السابقة .

ادمون جالو

اشفق اللهم ، اشفق على الحمقى والحمقاوات !
ايها الخالق ! هل يمكن ان يوجد أناس غير
اسوياء أمام عيني ذاك الذي يعرف وحده
لماذا وجدوا ، وكيف كانوا ، وكيف كان
يمكن ألا يكونوا ...

شارل بودلير

تيريز ، سيزعم كثير من الناس أنكِ لم توجدي ، ولكني أعرف أنك موجودة ، أنا الذي أترصد خطـــاكِ منذ سنوات ، وأستوقفك بعض الأحيان أثناء مرورك ، وأحسِر عنك قناعك .

إنني لأذكر ، يوم كنت يافعاً ، انني لمحتك في صالة غاصة بالجالسات ، وقد أسلمتِ الى محـامين أقل قسوة من السيدات المزينـات ، لمحت وجهك الصغير الأبيض بشفتيه المزيلتين .

ثم ظهرت لي بعد زمن في صالة بالريف ، في اهاب شابة شكسة كانت تثيرها عناية أهلها المسنين وزوجها الساذج . كانوا يقولون : « مـا شأنها ؟ فنحن ما ننفك نغمرها بكل شيء » .

ومنذ ذلك الحين ، كم مرة تأملت باعجاب يدك الكبيرة بعض الشيء وقد وضعتهـــا فوق جبينك الواسع الجميل ! وكم مرة رأيتك ، في أحد

المنازل ، من خلال افراد اسرة يشكلون حولك القضبان الحية لسجنك ، تستديرين على نفسك بخطى حذرة وتتفحصينني بنظرتك الثمة الكئيبة .

لسوف يدهش كثير من الناس أني استطعت أن اتخيل مخلوقة أدعى الى الكره من سائر أبطالي . أتراني استطيع أن أقول شيئاً عن الكائنات التي تقطر فضيلة والتي تحمل قلبها على راحة يدها . إن «ذوي القلوب على راحة اليد» لا قصص لهم . بيد انني أعرف قصة القلوب المغمورة والممتزجة كل الامتزاج بجسد من الوحل .

وددت ياتيريز لو يفضي بك الألم الى الرب ، ولطالما تمنيت أن تصبحي جديرة باسم القديسة لوكست [1] ، ولكن العديد ممن يؤمنون بالخطيئة وبخلاص نفوسنا المعذبة كانوا سيصرخون قائلين : لقد انتهكت الاقداس !

ومهما يكن من أمر فاني آمل ، وقد تركتك على هذا الرصيف ، ألا تكوني وحيدة .

١) امرأة رومانية مشهورة، تمرست بالقتل بالسم. استخدمها نيرون لقتل بريتانيكوس. (م.)

١

فتح المحامي أحد الأبواب ، فأحست تيريز ديكيرو ، في هذا الرواق الخفي من قصر العدل ، بالضباب يمس وجهها واستنشقته بعمق . كانت تخشى أن يكون أحد في انتظارها فترددت في الخروج . وانفصل رجل ، ذو ياقة مرفوعة ، عن شجرة دلب فتعرفت فيه أباها . صرخ المحامي «منع محاكمة» ثم التفت نحو تيريز وقال :

«يمكنك أن تخرجي ، فليس هنا من أحد ».

نزلت الدرجات المبللة . أجل لقد بدا المكان الصغير خالياً . لم يقبّلها أبوها بل لم يلق عليها أية نظرة ، كان يستفسر من المحامي (دورو) وكان هذا يجيبه بصوت خافت كأن هناك من يتربص بهما ، وسمعت حوارهما على نحو مبهم :

ـ ألا يمكن أن تحدث مفاجأة بعد الآن ؟

ـ كلا ، لقد سبق السيف العذل كما يقولون .

ـ لقد كان ذلك متوقعاً بعد ان أدلى صهري بشهادته .

ـ متوقعاً .. متوقعاً .. لا يمكننا أن نجزم بذلك .

ـ فمنذ أن كف عن تعداد النقاط ، كما جاء في اعترافه نفسه ...

ـ أنت تعرف يا لاروك أن شهادة الضحية في مثل هذه الأحوال ..

وأرتفع صوت تيريز :

– لم يكن هناك من ضحية .

– أردت أن أقول : ضحية غفلته يا سيدة .

نظر الرجلان هنيهة ، الى تلك المرأة الشابة الجـــامدة وهي ملتفعة بمعطفها ، والى ذاك الوجه الشاحب الذي لا يفصح عن شيء . سألتها أين العربة ؟ كان والدها قد جعل العربة تنتظرهم على طريق (بوردو) في ظاهر البلدة ، كي لا يثير اليها أنظار أحد .

اجتازوا الساحة : كانت أوراق الدلب ملتصقة بالمقـــاعد التي بللتها الأمطار . إن الايام قد قصرت كثيراً لحسن الحظ . وعلى كل فللوصول الى طريق بوردو يمكن سلوك أكثر الشوارع خلواً في الناحية . كانت تيريز تسير بين الرجلين اللذين يعلو جبينها عليها ، وقد استأنفــا حديثهما كأنْ لم تكن تيريز حاضرة . إلا أنها وقد ضايقها جسم هذه المرأة الذي يفصل بينهما كانا يدفعانها بمكسيها . فتريثت آنذاك وراءهما قليلاً ، وخلعت قفازها من يدها اليسرى لكي تنزع الطحلب عن الحجارة التي تمر بها . وكان يتجاوزها أحياناً عامل يمتطي دراجة أو عربة صغيرة . وكان الوحل المتطاير يحملها على أن تربض بجانب الجدار ، بيد أن الغسق الذي يغطي تيريز كان يمنع الناس أن يتعرفوها . لم تكن رائحة الفرن والضباب بالنسبة اليها ، رائحة المساء في بلدة صغيرة وحسب : فلقد وجدت فيهـــا شذا الحياة التي رُدّت إليهـــا آخر الأمر . فأغمضت عينيها على أنفاس الأرض الغـــافية المعشوشبة الرطبة . وجهدت ألا تصغي الى كلام الرجل الصغير الجسم ذي الساقـــين القصيرتين المتقوستين الذي لم يلتفت مرة نحو ابنته ، كان من المحتمل أن تسقط على حرف هذه الطريق ، ولم يكن هو ولا دورو ليلحظا ذلك . لم يكونا يخشيان أن يرفعا صوتهما بعد الآن .

وأجل ، كانت شهادة السيد ديكيرو ممتـــازة ، ولكن هناك تلك

الوصفة : والواقع ان في الأمر خطأ ... وان الطبيب بيدماي هو الذي أثار الدعوى ..

– لقد سحب دعواه ..

– على كل حال فان التفسير الذي جاءت به : عن ذاك الشخص المجهول الذي سلمها الوصفة ...»

عبثاً أبطأت تيريز في مشيتها لا ضجراً وحسب بل هرباً من هذه الكلمات التي كانوا يثقلون عليها بها منذ أسابيع : كان من المستحيل ألا تسمع صوت أبيها الحاد :

«لقد قلت لها هذا مراراً : « أيتها الشقية ، ابحثي عن شيء آخر ... ابحثي عن شيء آخر ...»

والواقع انه قال لها ذلك مراراً ، وباستطاعته أن يبرىء ساحته . ففيم ما يزال مضطرباً ؟ ان ما يدعوه اسم الاسرة قد أنقذ ، ومن الآن حتى موعد انتخابات مجلس الشيوخ لن يذكر أحد هذه القضية . بهذا فكرت تيريز التي كانت تود ألا تلحق بالرجلين ، الا انهما توقفا ، وسط الطريق ، في حمية مناقشتهما وراحا يكثران من الحركات .

« ثق بما أقول لك يا لاروك ، جابه الامور وهاجم خصومك على صفحات جريدة (الزارع) في عدد الاحد ، هل تؤثر أن أتولى ذلك بنفسي ؟ إن الموضوع بحاجة الى عنوان كهذا : الاشاعة القبيحة ...

– كلا يا صديقي ، كلا ، كلا : بماذا عسى أن أجيب ؟ لقد أصبح بدهياً جداً أن قد أغلق باب الاستعلامات . بل انهم لم يلجأوا الى خبير في الخطوط ، وأنا ما عرفت الا الصمت والاختناق . سأعمل ، وسأدفع الثمن . أما بالنسبة للاسرة فيجب أن يستر كل ذلك .. يجب أن يستر ..»

لم تسمع تيريز جواب دورو ، ذلك بأنها حتّا خطاها. فاستنشقت من جديد عبق الليل الماطر ، كأنّ مهدد بالاختناق واستيقظ في نفسها فجأة وجه (جولي بيلاد) جدتها لامها – كان وجهاً مجهولاً : فقد بحثوا عبثاً لدى اسرة لاروك واسرة ديكيرو عن لوحة أو صورة لهذه المرأة التي لا يعرف أحد شيئاً عنها سوى أنها ذهبت ذات يوم ولم تعد . وتخيلت تيريز أنه كان بامكانها أن تمحي على هذا النحو وتتلاشى ، ولا يتاح من ثم لابنتها ، لصغيرتها ماري ، أن تعثر في إضمامة ما على صورة المرأة التي وضعتها في العالم . ان ماري لتنام في هذه الساعة في غرفة بأرجلوز حيث ستصل تيريز متأخرة هذا المساء ، وستسمع المرأة الشابة ، خلال الظلمات ، الى صوت نوم الطفلة ، وستنحني فوقها وستبحث شفتاها عن هذه الحيـــاة النائمة كأنها تبحثان عن الماء .

على طرف الخندق ، أنار مصباحا العربة التي اسدل غطاؤها زوجاً من الخيول الهزيلة ، وانتصب خلف ذلك المكان عن يمين الطريق ويساره جدار قاتم من الغابة ، ومن منحدر الى منحدر كانت تلتقي رؤوس الصنوبرات الاولى ، وتحت هذا القوس يغوص الطريق السحري ، والسماء من فوقه تشق مسرباً غاصاً بالاغصان . تأمل الحوذي تيريز بانتبـــاه نهم . ولما سألته هل تصل العربة الى محطة بـ(نيزان) قبل موعد انطلاق آخر قطار، طمأنها الى ذلك : ولكن من الافضل الا يتأخروا .

«هذه هي آخر مرة أكلفك فيها بهذه السخرة يا غردير » .

– أليس للسيدة ما تفعله هنا ؟

فهزت رأسها والرجل لا يني يلتهمها بعينيه . أكان عليها أن تظل طوال حياتها عرضة لانظار الناس المتفرسين فيها على هذا النحو ؟

«هل أنت مسرورة الآن ؟»

بدا أن أباها قد لحظ ، آخر الامر ، أنها هنا . تفحصت تيريز بنظرة

مريعة هذا الوجـه الذي لطخه الغضب ، وهذين الخدين المليئين بوبر أبيض مصفر كان المصباحان يضيئانها بقوة . وقالت بصوت خافت : «لقد تألمت كثيراً ... انني متهدمة ...» ثم توقفت عن الكلام : فما فائدة الكلام ؟ إنه لا يصغي اليها ولم يعد يراها . ما شأنه بما تشعر به تيريز ؟ ان ما يهمـه هو وصوله الى مجلس الشيوخ الذي تعثر وأحرج بسبب هذه الابنـة (انهن جميعاً عصبيات ، ان لم يكنّ بلهاوات) . ومن حسن الحظ أنها لن تُنسب أبداً الى امرة لاروك . فهي من اسرة ديكيرو . وتنفس الصعداء أن القضيـة نجت من محكمة الجنـايات . ولكن كيف يمكنه أن يمنع خصومه من الحديث عن الجرح ؟ سيذهب منذ الغد ليقابل المدير . وحمد الله انه مسيطر على مدير جريدة (الأرض المحـافظة) : فقصة الفتيـات الصغيرات هذه ... وأمسك بذراع تيريز :

« اصعدي بسرعة ، فقد أزف الوقت » .

سألها المحامي آنذاك – ربما كان سؤاله عن خبث أو الكيلا تبتعد تيريز دون ان يكون قد وجّه اليها كلمة – هل ستلتحق منذ هذا المساء بالسيد برنار ديكيرو . وإذ أجابته « طبعاً ، إن زوجي ينتظرني ... » راحت تتمثل للمرة الاولى بعد ان غادرت المحكمة انهـــا ستجتاز فعلاً بعد عدة ساعات ، عتبة الغرفة التي كان زوجها ممدداً فيها ، وهو ما يزال مريضاً بعض الشيء ، وان هناك عدداً لا يحصى من الأيام والليالي سيفتح أمامها ، وعليها خلال ذلك ، أن تعيش حياتها حرباً على ذلك الرجل .

لا شك أنْ قد سبق لهـا أن قامت بهذه الرحلة نفسها التي تقوم بهـا هذا المساء ، منذ بدء التحقيق ، يوم كانت تقيم في منزل أبيهـــا ، على أبواب البلدة الصغيرة . ولكن لم يكن لها آنذاك من شاغل إلا ان تعلم زوجها بدقة عما يجري معهـا . كانت تصغي قبل ان تصعد الى العربة ، الى آخر نصائح (دورو) المتعلقـة بالأجوبة التي كان يجب على السيد

ديكيرو أن يدلي بها حين يعاد استجوابه – لم يكن يساور تيريز أي قلق في ذلك الحين أو أي ارتباك حول موضوع التقائها وجهاً لوجه مع هذا الرجل المريض : كان الامر يتعلق إذ ذاك لا بما حدث بينهما فعلاً ، بل بما ينبغي ان يقال أو لا يقال . ولم يتحد الزوجان قط كما اتحدا بفضل ذاك الدفاع ، اتحاداً في جسد واحد – هو جسد ابنتهما الصغيرة ماري . كانا يعيدان ، بناء على تعليمات القاضي ، تأليف قصة يسيرة قد ربطت اجزاؤها ربطاً محكماً وكانت تستطيع ان ترضي هذا الرجل المنطقي . كانت تيريز في تلك الايام ، تركب العربة نفسها التي تنتظرها هذا المساء – ولكن ما أشدّ نفاد صبرها في ان تنتهي هذه الرحلة الليلية التي تتمنى الآن ألا تبلغ نهايتها ! انها لتذكر بأنها ما ان صعدت الى العربة حتى ودت لو وصلت الى تلك الغرفة في أرجلوز ، وتذكرت التعليمات التي كان ينتظرها برنار ديكيرو (الذي لم يخش ان يؤكد أنها حدثته ذات مساء عن تلك الوصفة التي رجاها شخص مجهول أن تحملها بحجة أنه لا يجرؤ على الذهاب الى الصيدلي الذي يدين له بكثير من المال . . . ولكن لم يكن من رأي دورو أن يمضي برنار فيزعم أنه يتذكر مؤاخذته لزوجه على مثل هذا العمل الطائش) . . .

عمّ سيتحدث برنار وتيريز هذا المساء بعد ان تبدد الكابوس ؟ انها لتتصور المنزل التائه حيث ينتظرها زوجها ، وتتخيل السرير القائم في وسط هذه الغرفة المبلطة ، والمصباح المنخفض فوق الطاولة بين الصحف والقناني . . . ان كلاب الحراسة التي أيقظتها العربة لا تني تنبح ثم تصمت ، ويسود من بعد هذا الصمت العظيم ، كذاك الصمت الذي امتد في الليالي التي كانت تتأمل فيها برنار وهو فريسة تقيؤ عنيف . تجهد تيريز في ان تتخيل النظرة الاولى التي سيتبادلانها عمّا قريب ، ومن ثم هذه الليلة ، والغد ، واليوم الذي سيليه ، والاسابيع ، في هذا المنزل بأرجلوز حيث لن يختلقا معاً

رواية يمكن الاعتراف بها عن المأساة التي عاشاها . ولن يكون بينهما إلا ما حدث فعلاً ... مـــا حدث فعلاً ... تلجلجت تيريز وقد أخذ منها الفزع كل مأخذ ، وهي تلتفت نحو المحامي (ولكنها كانت تتوجه بكلامها نحو الشيخ) :

« إن في نيتي أن أقيم بضعة أيام بالقرب من السيد ديكيرو ثم أعود الى منزل والدي اذا جرت الامور على ما يرام .

– آه ، أما هذه فلا ، لا يا ابنتي ! »

واذ تحرك غرديز فوق مقعده ، تابع السيد لاروك كلامه بصوت اكثر انخفاضاً :

« هل جننت ؟ كيف تتركين زوجك في هذا الوقت ؟ يجب ان تصبحا كاصبعين في يد واحـدة ... كاصبعين في يد واحـدة هل فهمت ؟ حتى الموت ...

– أنت مصيب يا أبتي ، ماذا أصابني ؟ اذن فأنت الذي ستأتي الى أرجلوز ؟

– سأنتظرك يا تيريز على عادتي في منزلي كل يوم خميس حيث يقام السوق ، وستأتين كما كنت تأتين دائماً !

لم يكن يُصدق أنها لم تفهم أن اي تغيير في السلوك المألوف سيكون فيه موتهم هل كان ذلك مفهوماً ؟ هل يمكنه الاعتماد على تيريز ، لقد سببت للاسرة كثيراً من الأذى ...

« ستفعلين كل ما يطلبه منك زوجك ، ولست استطيع ان اقول شيئاً أفضل من هذا » .

ودفع بها الى العربة .

رأت تيريز يد المحامي تمتد اليها ، وأظافره السود الطويلة. قال المحامي :

« الامور بجوانبها . . » ، ولقد قال ذلك من أعماق قلبه ، فلو سارت القضية في مجراهـا الطبيعي لمـــا حصل قط على وجه ، ولكانت الاسرة استدعت المحـــامي بيروكاف من نقـابة بوردو . أجل لقد سار كل شيء سيرته الحسنة ...

٢

تحب تبريز رائحة الجلد المتعفن في العربات القديمة... لقد راحت تعزي نفسها ، وقد كرهت التدخين هذا المساء ، بأنها نسيت سكائرها . كان المصباحان يضيئان المنحدرات وهدب السرخس ، وجذور السروات الجبارة . وكانت كوم الحصى تلاشي ظل العربة ، وكانت تمر ، بعض الاحيان ، عربة صغيرة فينحرف البغلان من تلقاء نفسهما نحو اليمين دون ان يتحرك المكاري النائم ، وخيّل الى تبريز أنها لن تبلغ ارجلوز ابداً ، وأنها لترجو ألا تصل اليها أبد الدهر ؛ لا بد للعربة من أن تقضي اكثر من ساعة لكي تصل الى محطة نيزان ؛ ومن ثم تستقل ذاك القطار الذي يتوقف في كل محطة توقفاً لا نهاية له . ومن سان كلير نفسها حيث ستهبط الى ارجلوز ثمة أكثر من عشرة كيلومترات عليها ان تقطعها في عربة (فتلك هي الطريق التي لا تجرؤ أية سيارة ان تلجها في الليل) . ان القدر قد يستطيع أن يعترض سبيلها في كل هذه المراحل وينقذها . تستسلم تبريز لهذا الخيال الذي سيطر عليها عشية صدور الحكم فيما لو ثبتت عليها التهمة : راحت تنتظر ان تزلزل الارض زلزالها . وترفع قبعتها وتسند رأسها الصغير الشاحب المهتز الى جلد العربة المحبوب ، وتسلّم جسدها للاهتزاز . لقد عاشت حتى هذا المساء حياة كائن مطارد ، وها هي ذي الآن وقد نجت

بنفسها ، تقيس مدى ضناهـــا . خدان ضامران ، ووجنتان وشفتان فاغرتان ، وهـذا الجبين العريض البديع كل ذلك يؤلف وجــه امرأة محكوم عليها – نعم ، رغم ان الناس لم يعترفوا بأنها مذنبة – لقد حكم عليها بالعزلة الابدية . ان سحرهـــا الذي وصفه الناس فيا مضى بأنه لا يقاوم ، تتمتع به كل المخلوقات التي يفصح وجههـا عن ألم دفين وحرارة جرح داخلي ، هذا اذا ما تركته على سجيته ولم تجهد في ان تخاتل الناس. أن في قعر هذه العربة المهتزة ، فوق هذه الطريق التي تسلك عتمة السرو الكثيفة لامرأة شابة قد رفع عن وجهها القنـــاع ، تداعب بيدها اليمنى وجهها بلطف ، وجه انسان يحترق حياً . ماذا عسى ان تكون اولى كلمات برنار التي انقذتها شهادته المزورة ؟ لا شك في انه لن يطرح أي سؤال هـذا المساء ... ولكن غداً ؟ أغلقت تيريز عينيهـــا ثم فتحتهما وراحت ، والخيول تسير سيراً منتظمـاً ، تجهد في تعرف هذه العقبة . آه ، لم تستطع ان تتخيل شيئاً . ربما تمّ ذلك بأسهل ما تتخيل . لم تستطع ان تتخيل شيئاً . النوم ... لماذا ترى انهـا ليست في العربة ؟ هذا الرجل الواقف خلف بساط اخضر : انـــه قاضي التحقيق . . . انه بنفسه ... ومع ذلك فهو يعرف جيداً أن القضية قد سويت . ويتحرك رأسها ذات اليمين وذات اليسار : لا يمكنهم ان يعطوا وثيقة منع المحاكمة ، فهناك واقعة جديدة . واقعة جديدة ؟ تحول تيريز وجهها لكيلا يرى العدو وجهها المفكك . « استعيدي ذكرياتك يا سيدتي ، ألم تنسي شيئاً في الجيب الداخلي لهذا الرداء – هذا الرداء الذي لا ترتدينه إلا في شهر تشرين الاول لصيد الحمام ؟ لا مجال للاحتجاج . انها تتلعثم . لقد وضع القاضي على الطـــاولة ، دون ان يكف عن النظر الى طريدته ، صرة صغيرة مختومة بالشمع الاحمر . كانت تيريز تستطيع ان تقرأ الوصفة المكتوبة مع غلافها والتي قرأها الرجل بصوت حاسم :

كلوروفورم : ٣٠ غراماً .
اكونيتين : عشرون حبة .
ديجتالين سول : ٢٠ غراماً .

انفجر القاضي ضاحكاً ... صرّ المكبح على العجلة فاستيقظت تيريز ، وامتلأ صدرها الواسع بالضباب (لعل هذا منحدر الساقية البيضاء) . على هذا النحو كانت تحلم ، وهي فتاة مراهقة ، بأن خطيئة ما قد ترغمها على ان تتحمل من جديد امتحانات شهادة الكفاءة . وها هي تذوق ، هذا المساء ، العزاء الذي كانت تشعر به يوم تستيقظ آنذاك : قليلًا من الاضطراب لأن منع المحاكمة لم يعلن رسمياً بعد : « ولكنك تعلمين انه يجب ان يبلغ المحامي بذلك أولاً ... »

. . .

لقد اصبحت حرة ... ماذا عسى ان تأمل أكثر من ذلك ؟ لن تكون محاولتها في جعل الحياة قرب برنار ممكنة إلا نوعاً من اللعب . أما خلاصها ففي استسلامها اليه حتى أعماقها ، وعدم اخفاء شيء في دخيلة نفسها . فليبرز الى النور كل ما كان مختبئاً ، وليكن ذلك منذ هذا المساء . ان هذا العزم ليغمر تيريز بالفرح . وقبل ان تصل الى ارجلوز سيتاح لها الوقت الكافي كي « تهيء اعترافها » على حد تعبير صديقتها آن دولاتراف التي كانت تردده كل سبت من ايام عطلهما السعيدة . آن ، أيتها الاخت الصغيرة ، أيتها العزيزة البريئة ، أي مكان تشغلين في هذه القصة ! ان أكثر الكائنات براءة يجهلون في اي الأمور يتدخلون كل يوم وكل ليلة ، وأية سموم تنمو تحت اقدامهم البريئة كأقدام الاطفال !

لا شك في ان هذه الفتاة الصغيرة كانت على صواب ، حين كانت تكرر على مسمع تيريز ، الطالبة العاقلة الساخرة ، قولها : « لا يمكنك ان تتخيلي هذا التحرر الذي يشعر به المرء بعد ان يعترف بخطاياه وينال

الغفران ، وان باستطاعتنا بعد ان تصبح النفس نقية ان نبدأ حياتنا من جديد » . حسبُ تيريز ان تكون قد صممت على ان تقول كل شيء لكي تشعر فعلاً بنوع من الارتخاء اللذيذ : « سيعرف برنار كل شيء ، سأقول له ... »

ماذا تقول له ؟ وبأي اعتراف تبدأ ؟ هل تكفي الكلمات للتعبير عن التصاميم والتصرفات المفاجئة وتلاحم الرغائب المختلط ؟ مـــاذا يفعل كل اولئك الذين يعرفون جرائمهم ؟ ... « أمـا أنا فلست اعرف جرائمي ، ولم أبيّت هذه الجريمة التي يلقونها على عاتقي . لست اعرف ماذا أردت ، ولم اعرف قط الى أين تتجه هذه القدرة الجامحة داخل نفسي وخارجهـا : وان ما سحقته في طريقها قد بعث الهول في نفسي ذاتها ... »

كان مصباح مدخن يوقد بالغـاز يضيء جدران محطة (نيزان) المبلطة كما كان يضيء عربة واقفة . (فلتعد الظلمات الى مـــا كانت عليه في الجهات المجاورة بسرعة !) وكان ينبعث من قطـار واقف في المحطة خوار وثغـاء كئيبين . تناول غـاردير حقيبة تيريز والتهمها بعينيه مرة اخرى . لا بد أن زوجته قد اوصته بذلك : «ستنظر اليهـــا جيداً لترى كيف هي ، ومدى ثيابهـــا ... » وابتسمت تيريز بغريزتهـا لسائق السيد لاروك تلك الابتسامـة التي كانت تحمل النـاس على القول : «وان المرء لا يتساءل هل هي جميلة أو قبيحة ، بل يخضع لسحرها ...» سألته ان يمضي فيحجز لهـا مكاناً في شباك التذاكر لأنهـا كانت تخشى ان تجتاز ردهة الانتظار حيث تجلس قرويتان وعلى ركبة كل منهما سلة ، تنسجان الصوف وهمـا تهزان رأسيهما .

حين حمل اليها البطاقة طلبت اليه ان يحتفظ ببقية النقود ، فلمس بيده قبعته ، ثم التفت للمرة الاخيرة ، وقد امسك بالأعنـة ، ليتفحص ابنـة معلمه .

لم يكن القطار مهيئاً آنذاك ، فكانت تيريز لاروك وآن دولاتراف تفرحان لتوقف القطار في محطة نيزان اثناء العطل أو أيام العودة الى المدرسة . كانتا تأكلان في الفندق بيضة مقلية مع اللحم وتمضيان متخاصرتين في هذه الطريق المظلمة جداً هذا المساء . بيد ان تيريز لم تكن ترى هذه الطريق في تلك السنوات المنصرمة ، الا مضاءة بضوء القمر . كانتا تضحكان في ذلك الحين من خياليهما الطويلين المختلطين . لا شك في أنهما كانتا تتحدثان عن معلماتهما ورفيقاتهما – كانت الواحدة تدافع عن ديرها والاخرى عن معهدها . « آن ... » لفظت تيريز اسمها بصوت عال . في الظلام ، عن هذه الفتاة كان يجب أن تحدث برنار قبل كل شيء ... برنار اكثر الناس دقة : فهو يصنف كل العواطف ، ويعزلها ، ويجهل ما بينها من ارتباط متتابع وانتقال . كيف تحمله الى هذه المناطق غير المحدودة التي عاشت فيها تيريز وتألمت ؟ ومع ذلك فيجب عليها أن تقوم بهذا العمل . ليس ثمة الا حركة واحدة يمكن أن تقوم بها تيريز ، عما قريب ، حين تدخل الغرفة ، ذلك بأن تجلس على طرف السرير وتمضي ببرنار من مرحلة الى مرحلة حتى يوقفها هذا ويقول لها : « فهمت الآن ، انهضي ؛ انني اسامحك » .

اجتازت حديقة رئيس المحطة تتلمس طريقها بيديها ، واستنشقت شذا الاقاحي دون ان تراها . لم يكن في الطابق الأول من أحد ، بل ان فضالة النور لم تكن كافية لتنير وجهها . يستحيل عليها أن تقرأ : ولكن ألم تكن كل قصة تبدو لتيريز تافهة بالنسبة لحياتها الرهيبة ؟ ربما ماتت من الخزي والغم والندم والتعب – ولكنها لم تكن تموت من الملال .

انزوت وأغمضت عينيها . أكان من المعقول أن تعجز امرأة في مثل ذكائها على جعل هذه المأساة واضحة ؟ أجل . وإما انتهى اعترافها ، فإن برنار سينهضها ويقول لها : « امضي بسلام يا تيريز ، وكفي عن القلق ؛

سننتظر الموت معاً في ارجلوز ، دون أن تستطيع الامور التي حدثت أن تفصل بيننا . أنا عطشان ، انزلي أنت الى المطبخ فهيئي لي كأساً من عصير البرتقال ، سأشربه جرعة واحدة ، ولو كان عكراً . ما همّ إن كان طعمه يذكرني بطعم الشوكولا التي كنت اشربها في الصباح فيما مضى ؟ هل تذكري يا حبيبتي تلك التقيؤات ؟ كانت يدك المحبوبة تسند رأسي ، وكنت لا تحولين بصرك عن هذا السائل الضارب لونه الى الخضار . لم يكن اغمائي يقلقك ، ومع ذلك فكم بدوت شاحبة في تلك الليلة التي لاحظت فيها ان ركبتي جامدتان لا حس فيها . كنت ارتجف ، أتذكرين ؟ وذاك الطبيب الاحمق (بيدماي) الذي أدهشه انخفاض حرارتي وتسارع نبضي ...»

قالت تيريز في نفسها : «آه ... لن يفهم ذلك ، يجب أن تعود أدراجها منذ البداية ...» أين بداية أعمالنا ؟ ان مصيرنا ، حين نريد أن نعزله ، يصبح أشبه شيء بتلك النباتات التي يستحيل ان نقتلعها بكل جذورها . هل تعود تيريز بذاكرتها الى طفولتها ؟ ولكن الطفولة هي نفسها غاية ونتيجة .

طفولة تيريز : ثلج ناصع البياض في ينبوع نهر شديد الاتساخ . ففي المعهد بدت كأنها تعيش غائبة لامبالية بالمآسي الصغيرة التي كانت تمزق زميلاتها . وكثيراً ما كانت المعلمات تقدم تيريز ديكيرو على انها مثال يقتدى به : «ان تيريز لا تطلب من مكافأة الا فرحها بأن تحقق في ذاتها نموذجاً متفوقاً من الانسانية . ان ضميرها هو ضياؤها الوحيد الكافي . وان كبرياءها في الانتساب الى النخبة الانسانية كان يدعمها اكثر من خوفها من العقاب ...» هذا ما كانت تقوله احدى معلماتها . وتساءلت تيريز : «هل كنت سعيدة كل هذه السعادة ؟ هل كنت سليمة الطوية الى هذا الحد ؟ ان كل ما سبق زواجي ليتخذ في ذاكرتي هذا الشكل

من الصفـاء ؛ انه يناقض ، لا شك ، تلطخ العرس الذي لا يمحى . ان المعهد يبدو لي ، قبل فترة زواجي وامومتي كأنه الفردوس . ولم أكن أشعر آنذاك بهذا الفردوس . كيف كان لي ان اعرف انني كنت اعيش حياتي الحقيقية في تلك السنوات التي سبقت حيـــاتي ؟ لقد كنت نقية : ملاكا كريمـاً . نعم ! ولكنه ملاك ملوث الأهواء . ومهما زعمت معلماتي فقد كنت أتعذب واعذب الآخرين . كنت أتلذذ بما اسببه من عذاب . وكنت ابتهج بالعذاب الذي تسببه لي صديقـاتي . إنـه لألم صـــاف لا تستطيع أية ندامة أن تشوهه : آلام وافراح تتولد من أطهر المسرات ».

كانت مكافـأة تيريز ، في تلك الفترة الملتهبة ، ان ترى نفسها كفؤاً لآن" التي كانت تلتقي بها تحت اشجار السنديان بأرجلوز . كانت تريد ان تكون قادرة على ان تقول للفتاة التي تعيش في دير (القلب الاقدس) : « لست بحاجة الى كل هذه الاشرطة ، ولا الى كل هذه الكلمات التي لا معنى لها . لكي اكون في مثل نقائك ...» هذا وقد كانت طهارة آنـ دولاتراف تقوم على الجهل ، ذلك بـأنـ راهبات (القلب الاقدس) كن يضعن بين الواقع وبين فتيـــاتهن الصغيرات آلاف الحجب . وكانت تيريز تحتقرهن لأنهن يخلطن الفضيلة بالجهل . وكانت تكرر في تلك الاصيـاف البعيدة بأرجلوز : « أنت لا تعرفين الحيـاة يا عزيزتي ... » تلك الاصياف الجميلة ... ان تيريز لتعترف ، في هذا القطار الصغير الذي تحرك اخيراً ، أن نحو تلك الاصياف يجب أن تعود بذاكرتهـا اذا مـا ارادت أن ترى الامور بجلاء . وانهـــا لحقيقة لا تصدق ان تكون أعنف العواصف قد تعلقت في الأفجار النقية من حياتنا . واذا كانت الاصبـاح شديدة الزرقة فتلك علامة سيئة عن حالة الطقس بعد الظهر وفي المساء ، انها تنبىء بتلف الازهار وانكسار الأغصان وبذاك الوحل كله . لم تفكر تيريز قط ، ولم تتبصر قط في اي امر طوال حياتهـا ؛ لم يكن في حياتهـا أي انعطاف

مفـاجيء : كان منحدراً لا يشعر بـه المرء ذاك الذي سلكته ببطء أول الأمر ثم بسرعة . انـ المرأة التـائهة في هذا المساء هي الفتاة نفسها التي عاشت أصياف ارجلوز والتي تعود اليها الآن خائفة يسترها ظلام الليل .

يا للضنى ! ما فائدة الكشف عن البواعث الخفية للأعمال التي حدثت ؟ ان المرأة الشابة لا تستطيـع أن تميز شيئاً من خلال النوافذ ، غير انعكاس وجهها الميت . يتوقف ايقـــاع القطار الصغير وتصفر القاطرة صفيراً طويلًا وتقترب بحذر من احدى المحطات . ثمة فـانوس تؤرجحه احدى الأذرع ، ونداءات بلهجات ريفية ، وصرخات الخنانيص الحـــادة وهي تُنزل من القطار : لقد وصل القطار الى اوزست مريعاً . لم يبق الا محطة واحدة ويبلغ القطار سان كلير ومن هناك يجب أن تنهي آخر مرحلة من الطريق الى ارجلوز في العربة . ألا مـا أقتصر الوقت الذي بقي لتيريز كي تهيء دفاعها عن نفسها !!

٣

في الحق ان ارجاوز تقع في آخر الدنيا ؛ انها احدى تلك المناطق التي يستحيل على المرء أن يتجاوزها ، وان ما يدعى حياً هنا ، لهو عبارة عن بعض مزارع لا كنيسة فيها ولا دار حاكم ولا مقبرة ، منشورة حول حقل شيلم على بعد عشرة كيلومترات من قرية سان كلير التي تربطها بها طريق واحدة مشققة . هذه الطريق المليئة بآثار العجلات والحفر تنسلخ ، خلف ارجاوز ، الى دروب رملية ، وليس هنــاك حتى المحيط من شيء غير ثمانين كيلومتراً من المستنقعات والبحيرات وأشجار الصنوبر المزيلة ، والأراضي البور حيث يصبح لون الغنم ، في آخر الشتاء ، بلون الرماد . ان الامر الفضلى في سان كلير تنحدر من هــذا الحي الضـائع . ففي منتصف القرن المـاضي ، اقام في سان كلير أجداد النـاس الذين يعيشون فيه اليوم ، بعد أن بدأت موارد الصمغ والخشب تضـاف الى الموارد الضعيفـة التي كانت تدرهـا عليهم قطعانهم ، وأضحت منـازلهم في ارجاوز مزارع ، وإن عوارض الافريز المنحوتة وبعض المدافىء المرمرية ، تشهد على عزتهـا القديمة . وهي تتداعى سنة بعد سنة كما أن الجنـاح الكبير المتعب لأحد سقوفها يكاد يمس الأرض .

ومع ذلك فإن منزلين من هذه المنازل ما يزالان قائمين هناك يسكنها

السادة . لقد تركت كل من اسرة لاروك وديكيرو منزلها في ارجلوز كما خلفها لها الأسلاف . لم يكن جيروم لاروك عمدة ب... والمستشار العام لها الذي جعل مقره الاسامي ابواب مديرية الناحية ليريد أن يبدل شيئاً في أراضيه بأرجلوز تلك التي جاءته من زوجه (وقد ماتت هذه اثناء عملية اجهاض ، وتيريز ما تزال في المهد) ولهذا فانه لم يكن يعجب من أن الفتاة الصغيرة تميل الى تمضية العطل هناك . كانت تؤم ذاك المكان منذ شهر تموز تحت رعاية العمة كلارا ، وهي عانس صماء كانت تحب هي أيضاً هذه العزلة لأنها لم تكن ترى ، على حد زعمها ، شفاه الآخرين تتحرك ، ولأنها كانت تعرف بأن المرء لا يمكن أن يسمع ثمة غير صوت الريح بين أشجار الصنوبر . وكان السيد لاروك يهنىء نفسه بأن أرجلوز التي تخلصه من ابنته ، تقرب هذه من برنار ديكيرو الذي يجب أن تتزوج منه ، ذات يوم ، وفق رغبة الاسرتين رغم ان اتفاقهما لم يتخذ صفة رسمية .

كان برنار ديكيرو قد ورث عن ابيه ، في أرجلوز ، منزلاً مجاوراً لمنزل اسرة لاروك ؛ لم يكن يراه احد قبل بدء موسم الصيد ، ولم يكن يتوقف عن الصيد إلا في شهر تشرين الأول بعد ان ينصب أقفاص الحمام غير بعيد عنه . كان هذا الفتى الرصين يدرس الحقوق في الشتاء . أما في الصيف فلم يكن يخص اسرته إلا بأيام قليلة : ذلك بأنه كان يتضايق من فكتور دولاتراف المفلس الذي تزوجته امه وهي أرملة ، والذي كانت نفقاته حكاية تتناقلها سان كلير . وكانت آن اخته لأمه تبدو له صغيرة جداً حتى انه لا يستطيع ان يوليها اي اهتمام . هل كان يفكر بتيريز اكثر منها ؟ كانت البلدة كلها قد زوجتهما ، لأن أملاكهما انما وجدت ، كما يبدو ، لكي تختلط بعضها ببعض وكان الفتى الحكيم ، على اتفاق معها في هذه النقطة ، إلا انه لم يترك للمصادفة أن تؤثر في

مجرى الامور ، بل كان يجهد في ان يتصرف بشؤون الحيـــاة فيحسن التصرف ، وكان هذا الشـاب الذي يميل كثيراً الى السمنة يردد : « ان المرء لا يكون تعساً قط ، الا بنتيجة خطئه ... » وكان حتى زواجـه ينصف مـا بين العمل واللهو ، وإذا كان لا يحتقر الطعام أو الشراب أو الصيد بخاصة فانه كان يعمل «بلا انقطاع» على حد تعبير امه . ذلك بأن الزوج ينبغي أن يكون اكثر ثقافة من زوجته ، لا سيما وان ذكاء تيريز كان مشهوراً ؛ انهـا ملحدة ولا شك ... ولكن برنار كان يعرف لأي البراهين تخضع المرأة . ومن ثم فمن الخير له ، وهذا مـا كانت تكرره امـه على مسمعه ، انـ يصطاد عصفورين بحجر واحد ، فباستطاعة والد تيريز أن يخدمه . وبعد أن قام برنار ديكيرو ببعض الاسفار «التي اعدت من قبل اعداداً كاملاً » الى ايطاليـا واسبانيـا وهولندا ، تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره من أغنى فتيـات المنطقة وأذكاهن ، وربمـــا لم تكن أجمل الفتيات . «الا أنـ المرء لا يتساءل هل هي جميلة أم قبيحة بل يتأثر بسحرها » .

ابتسمت تيريز لهذه الصورة الكاريكاتورية التي رسمتها في ذهنها لبرنار : «الحق أنه كان الطف من معظم الشباب الذين كان يمكن أن اتزوجهم » . انـ نساء المنطقة خير من الرجال الذين يعيش بعضهم مع بعض منذ عهد الدراسة ، تتهذب نفوسهم الا قليلاً . لقد احتفظت المنطقة بقلوبهم ، وهم يظلون فيهـا بفكرهم ، وليس أمامهم الا الملذات التي تتيحها لهم . وكان من الخيانة أن يغادروها ، بل ان مغادرتها لخيـانة اعظم من عدم تشبههم بالمزارعين أو التخلي عن لهجتهم المحليـة أو عـاداتهم الخشنة المتوحشة . ألم يكن تحت قوقعة برنار القـاسية شيء من الطيبة ؟ وحين اوشك أن يموت كان المزارعون يقولون : « لن يكون بعده من سيد هنـا » . نعم كان يمتـاز بشيء من الطيبة واستقامة في التفكير وكثير من حسن النية ، لم

يكن يتحدث قط عن أمور لا يعرفها وكان يعرف حدوده . ولم يكن في مراهقته قبيحاً جداً ، ما أشبهه بايبوليت [1] ولكن من غير أن تصقله الحضارة — كما كان أقل اثارة لفضول الفتيات من الأرانب البرية التي يصطادها في القفار ...

ومع ذلك فلم يكن هو ، ذاك الذي تراه تيريز الآن والاجفان منها مسدلة والرأس مستند الى زجاج عربة القطار ، يظهر على دراجته في تلك الاصباح الماضية ، على الطريق من سان كلير الى ارجلوز حوالي الساعة التاسعة صباحاً قبل ان تبلغ الحرارة ذروتها ، لم تكن ترى الخطيب اللامبالي ، بل اخته الصغيرة آن ذات الوجه المضطرم — وكانت الصراصير في ذلك الوقت المبكر ، تضطرم من شجرة صنوبر الى اخرى ويبدأ سعير الأرض يلفح تحت السماء . كانت ملايين الذبابات تطير عن اعالي الأغصان : «ارتدي معطفك اذا ما دخلت الى البهو ، فذاك مكان شديد البرودة ...» وكانت العمة كلارا تضيف : «يا صغيرتي ، عليك ان تشربي حين يجف عرقك ...» كانت آن تصرخ في اذن الصماء بكلمات الترحيب التي لا فائدة منها . «لا تكثري من الصراخ ياعزيزتي فهي تفهم كل شيء من حركات الشفاه ...» ولكن الفتاة كانت تتلفظ بكل كلمة على حدة ، من غير جدوى ، ، فتشوه فمها الصغير : وتجيب العمة بما يعن لها حتى تضطر الصديقتان الى الهرب كي تضحكا بحرية ...

كانت تيريز تنظر من أعماق عربة القطار الى هذه الأيام الصافية من حياتها ، الا ان سعادة غامضة كانت تضنيها ، ولم تكن تعرف آنذاك أن هذا الوميض العكر من السعادة سوف يكون حظها الوحيد من العالم ، ولم يكن ثمة ما ينبئها بأن كل نصيبها يقوم في صالة مظلمة ، في قلب الصيف المتأجج — على تلك الأريكة المصنوعة من الحرير الأحمر ، قرب

---

١) من ابطال الاساطير اليونانية ، يمتاز بالجمال حتى لقد احبته فيدر زوج ابيه . (المترجم)

آن التي كانت تضع على ركبتيها المتقاربتين اضمامة الصور . من أين كانت تأتيهـا السعادة ؟ هل كانت آن تشاطرها أيـــاً من اهتماماتها ؟ كانت آن تزدري القراءة ولم تكن تحب الا الخياطة والثرثرة والضحك ولم يكن لديهـــا أية فكرة حول أية قضيـة بينما كانت تيريز تلتهم بشهية واحدة روايات بول دوكوك و «أحاديث الاثنين» و «تاريخ القنصلية» وكل مـا يتبقى من كتب في خزائن منزل ريفي . لا ميول مشتركة بينهما سوى الرغبة في ان تكونا معاً خلال تلك الآصال حيث تحاصر نار السماء الناس أعنف محاصرة في اماكن شبه مظلمة . وكانت آن تقف بعض الاحيـان لترى هل خفّت وطأة الحرارة ، ولكن مـــا ان تشق مصاريع النوافذ حتى ينبجس فجأة ضياء شبيه بجرعة من المعدن المصهور يبدو كأنه يحرق الحصيرة ، وكان ينبغي أن يغلق كل شيء من جديد ويتبلد .

وكانت الحرارة تظل قـائمة تحت اشجار البلوط حتى في الغسق حين لا تحمر الشمس الا اسافل اشجار الصنوبر التي يتعلق بهـا بالقرب من الأرض صرصار أخير ، وإمّا جلست الصديقتان على ضفة بحيرة فقد كانتا تتمددان على طرف الحقل ، وكانت السحب العاصفة تقدم لهما صوراً مُنزَلقة ، بيد ان هذه السحب كانت تختفي قبل ان يتـــاح لتيريز أن تميز فيهـا المرأة المجنحة التي رأتهـا آن في السماء ، فـكانت الفتاة تقول : لم تكن هذه الا حيواناً ممدداً .

أما في أيلول فقد كان باستطاعتهما أن تخرجا بعد تناول الطعام فتتوغلا في بلاد الظمأ : اذ لم يكن هناك في ارجلوز أي سلسال من المـاء ، ولا بد للمرء من أن يسير طويـلاً فوق الرمـــال قبل ان يبلغ السواقي التي تسمى (لاهور) . وكان عدد كبير من الفتيات يحفرن غيطاناً ضيقة بين جذور الحور ، فتتجمد ارجلهن في المـاء البارد ، ثم مـــا ان تجف حتى تلتهب من جديد . وكان يستقبلها أحد الاكواخ التي يستفيد منهـــا

الصيادون في صيد اليام في تشرين الأول . كما كانت تستقبلها الصالة المظلمة منذ فترة قريبة . ولم يكن ثمة من كلام تتبادلانه : لم تكونا تنبسان بأية كلمة : وان الدقائق لتهرب في هاته الاستراحات البريئة دون أن تفكر الفتاتان في أن تتحركا ، صنيع الصياد الذي يركن الى الصمت اذ يقترب منه طائر . وهكذا كان يخيل اليها أن أية حركة من شأنها أن تبدد سعادتهما البريئة التي لا شكل لها . كانت آن أول من تمدد — اما تيريز التي نفد صبرها من قتل الحمام في الغسق ، وكانت تكره هذا النوع من اللعب — فقد تبعتها مع ذلك ، وهي الى وجود رفيقتها في شوق دائم . كانت آن قد احضرت من الردهة البندقية من عيار ٢٤ التي لا تطلق ، بينا ظلت رفيقتها على المنحدر وهي تراها بين الشيلم تصوب نحو الشمس كأنما تريد أن تطفئها . اغلقت تيريز اذنيها ، وسكتت صرخة سكرى في زرقة السماء ، والتقطت الصائدة العصفور الجريح ، وضمته بيد حانية ثم خنقته وهي تقبل ريشه الحار بشفتيها .

«— هل تأتين غداً ؟

— اوه ! كلا ، لن آتي كل يوم ! »

لم تكن تتمنى ان تراها كل يوم ، وهذا كلام معقول ، وليس لها ان تعارضه ، وان كل احتجاج ليبدو بالنسبة لتيريز نفسها أمراً لا معنى له . كانت آن تؤثر الا تعود ، ولم يكن ثمة شيء يمنعها من المجيء ، لا شك ، ولكن لماذا يتقابلان كل يوم ؟ قالت لها : «سينتهي بنا الامر الى ان نتنافر» . وأجابتها تيريز : « نعم ... نعم ... واحرصي خاصة ألا تجعلي من ذلك واجباً : عودي حين يحملك قلبك على العودة ... حين لا يكون لديك عمل أفضل من المجيء ...» وكانت الفتاة الممتطية دراجتها تختفي فوق الطريق التي اخذ الظلام يلفها وهي تقرع جرس الدراجة .

كانت تيريز تعود الى المنزل فيحييها المزارعون من بعيد ، أما

الاطفال فلم يكونوا يقتربون منها . كانت تلك هي الساعة التي تنتشر فيها الاغنام تحت اشجار البلوط ، وفجأة تركض الاغنام كلها معـــاً ، وكان الراعي يصرخ . كانت عمتها تنتظرها امـام الباب وهي مـا تفتأ تتكلم ، شأن الصم ، لكيلا تسمح لتيريز بالكلام . ما هذا الغم الذي ينتابها ؟ لم تكن ترغب في القراءة ولا في أي شيء آخر . كانت تشرد من جديد : «لا تبتعدي ، فسنسكب الطعام عما قريب» . كانت تعود الى ضفة النهر – الفـارغ حتى حدود البصر . كان الجرس يرن على عتبة المطبخ ، ربمـا وجب ان يوقدوا المصباح هذا المساء . لم يكن الصمت بالنسبة لهذه الصماء الجامدة التي صلّبت يديها فوق غطاء الطاولة ، بأعمق منه لدى هذه الفتاة الشرسة الى حد ما .

. . .

برنار ، برنار ، مـــا السبيل الى حملك الى هذا العالم المضطرب أنت يا من تنتمي الى ذاك العِرق الاعمى ، الى عِرق البسطاء الحقود ؟ وفكرت تيريز في نفسها : «بيد أنه قـاطعني منذ الكلمات الاولى قائلاً : لمــاذا تزوجتني ؟ فأنا لم اسع خلفك ...» لماذا تزوجته ؟ الحق انه لم يكن في سرعة من أمره . وتذكرت تيريز ان والدة برنار زوجـة السيد فيكتور دولاتراف كانت تردد على مسمع كل زائر قولهـــا : «كان بامـكانـه أن ينتظر ، ولكنها ارادته ، لقد ارادته ، لقد ارادته . وهي ، مع الاسف لا تؤمن بمبادئنا ، فهي تدخن السكائر مثلاً كما يدخن الجنود : وانها لتبدو شبيهة بهم . الا انهـا تمتـاز بطبيعة مستقيمة جداً وهي صريحة كالذهب ، وسنعمل بسرعة على حملها الى جادة الصواب . لا شك في ان هذا الزواج ليس باسمـاً كله . نعم ... فجدتهـــا بيلاد ... اعرف ذلك جيداً ... ولكنها أصبحت أمراً منسياً ، أليس كذلك ؟ بل ان الناس لا يكادون يقولون بأن فضيحة ما قد حدثت ، والحق ان الموضوع قد طوي نهائياً .

أأنتم تؤمنون بالوراثة ؟ ان اباهـا ميء التفكير ، وهذا أمر متفق عليه ، الا انه لم يقدم لها الا قدوة حسنة : فهو قديس علماني . كما ان له نفوذاً كبيراً ، والانسان بحاجة الى جميع النـاس ولا بد لنـــا أخيراً من ان نغض الطرف عن بعض الامور ، ثم لكم ان تصدقوني اذا قلت انها اغنى منـا . وهذا شيء لا يصدق ولكن هذه هي الحقيقة ، وهي تقف من برنار موقف العابد ، وفي هذا ما فيه من الضمان » .

اجل . لقد كانت تقف منه موقف العـــابد : فليس هنـاك موقف يتطلب جهداً أضعف من هذا : اذ لم يكن عليهـــا في صالة ارجلوز أو تحت اشجار البلوط على اطراف الحقل الا ان ترفع عينيهـا نحوه ، وكان ذاك منتهى علمها في خلق الغرام الصـافي . وان هذه الطريدة تحت اقدام الصبي لتفتنه الا انهـــا لم تكن تدهشه . ولطالما كررت امه على مسمعه قولها : «لا تلعب معها فقد تثير حفيظتها » .

«لقد تزوجته لانني ...» تسعى تيريز لان تتذكر سبب زواجها وهي مقطبة جفنيها وقد وضعت احدى يديها فوق عينيها . كان ثمة ذاك الفرح الصبيـــاني ، في ان تصبح عن طريق هذا الزواج ، زوجة أخي آن . ولكن آن هي التي كانت تشعر بالسرور لهذا الزواج بخـاصة . ولم يكن لهذا الرباط بالنسبة لتيريز كبير قيمة . ولكن علام الخجل ؟ انهـــا لم تقف لامبالية امـام المكتارات الالفين التي يمتلكها برنار . « فقد كان حب التملك في دمهـا دائماً ». ذلك بـأن تيريز كانت تلبث مع الرجال أغلب الاحيـان بعد ان ينتهي تناول الطعام الطويل على المـائدة فيرفع الطعـام ويوضع الشراب ، تستوقفها احـاديثهم المتعلقة بالمزارعين وبأسعار فلذات القصدير والجواهر والصمغ . كانت تشغف بتقييم الامـلاك ، ولا شك في ان هذه السيطرة على منبسط واسع من الغابة قد فتنتها . «وكان هو أيضـاً مغرمـاً بأشجار السرو التي امتلكتها أنا ... » ولعل تيريز قد

خضعت الى شعور اكثر غموضاً من هذا الشعور الذي تجهد في اظهاره : فربما كانت تبحث في الزواج لا عن سيطرة أو امتلاك بل عن ملجأ وملاذ . ألم يكن الخوف مبعث امراعها في هذا الزواج ؟ لقد كانت تود ، وهي الفتاة العملية والصبية المنزلية ، ان تحتل مكانها في الحياة وتجد فيها مستقراً نهائياً . كانت تريد أن تكون في مأمن ضد خطر لا تعرفه . ولم يبد عليها التعقل قط كما بدا اثناء فترة خطوبتها : فقد كانت تستتر في كتلة الاسرة «وكانت تنتظم» وتلج عالم النظام والنجاة .

. . .

كانا بسلكان ، أيام الربيع من خطوبتهما ، هذه الطريق الرملية التي تصل بين ارجلوز وفيليجا . كانت أوراق السنديان الميتة ما تزال تلطخ زرقة الافق ، والسرخس الجاف يغطي الارض التي تثقبها طلائع الازهار المتسلقة بلون أخضر فاتح . كان برنار يقول : « انتبهي الى سيكارتك ، فقد يحترق العشب وليس في الارض نقطة ماء واحدة » . وتسأله تيريز : « هل يحتوي السرخس على حمض بروسي ؟ » . ولم يكن برنار يعرف هل يحتوي السرخس على حمض يكفي للانتحار ، فيسألها بعذوبة : « هل تشعرين برغبة في الموت ؟ » ، فتضحك . لقد تمنى برنار لو انها اصبحت اكثر بساطة . وتذكرت تيريز أنها اغمضت عينيها بينما كانت يدان كبيرتان تلفان رأسها الصغير ، وصوت يهمس في اذنها : « ما يزال ههنا بعض الافكار الخاطئة » ، فأجابته تيريز : « عليك أنت ان تنتزعها يا برنار » . لقد تأملا عمل البنائين الذين كانوا يضيفون غرفة جديدة الى مزرعة فيليجا . كان المالكون ، وهم من بوردو ، يريدون ان يقيم هناك آخر ابنائهم ، « ذلك الذي كان يشكو ألماً في صدره » . لقد ماتت أخته من المرض ذاته . وكان برنار يشعر بكثير من الاحتقار نحو اسرة ازفيدو ، « انهم يقسمون بكبار آلهتهم انهم ليسوا من أصل يهودي... ولكن ليس على المرء

إلا أن ينظر اليهم، والى ذلك فهم مصابون بالسل وسائر الامراض...» ، كانت تيريز هادئة . ستعود آن من دير القديس سبستيان لتتزوج. لا بد أنها طاردت ابن (ديغيليم) . كانت قد طلبت الى تيريز أن تصف لها « مع عودة البريد » أثواب الآنسات المرافقات لحفلة العرس : ألا يمكنها ان تحصل على عينة منها ؟ فقد كان من الافضل ان يختترن ألواناً تنسجم فيما بينها ... » ، لم تعرف تيريز قط مثل هذا الهدوء ، وأن ما خيل اليها انه الهدوء لم يكن إلا غفوة هذا الحيوان في صدرها واسترخاءه .

٤

شعرت تيريز أنها ضاعت إلى الابد . كان ذلك يوم العرس الخانق في كنيسة سان كلير الضيقة حيث حفيف اثواب السيدات يخفي أنغام المعزف وعبيرهن يطغى على رائحة البخور . لقد دخلت القفص غير شاعرة بما تفعل كمن يسير في نومه . واستيقظت الفتاة المسكينة فجأة على صوت اغلاق الباب الصفيق . لم يتغير شيء هناك ، إلا أنها شعرت أنها لن تكون وحدها بعد اليوم . فستختفي في اعماق اسرة ، كأنها نار مخادعة تختفي تحت الهشيم ، فتحرق هذه الصنوبرة ، ثم تحرق تلك . وبعد ذاك تنتقل من مكان الى مكان حتى تخلق غابة من المشاعل . لم يكن بين ذاك الجمهور اي وجه تستطيع ان تريح عينيها عليه ، غير وجه آن ، إلا أن فرح الفتاة الطفولي كان يبعدها عن تيريز : فرحها ! كأنها كانت تجهل أنهما ستفترقان ذلك المساء نفسه ، لا في المكان وحسب ، بل لأن تيريز كانت تتألم آنذاك ، وكان مبعث ألمها أن جسدها سيتعرض للجرح الذي لا يبرأ . لقد لبثت آنْ على الضفة حيث تقف الكائنات الابكار تنتظر ، أما تيريز فستختلط بقطيع اللواتي قمن بواجبهن . وتذكرت انها لحظت فجأة في السكرستية ، حين انحنت لتقبل الوجه الصغير المرفوع نحوها ، هذا العدم الذي خلقت حوله عالماً من الآلام الغامضة والافراح المبهمة .

واكتشفت ، في مدى دقائق قليلة ، عدم تناسب لا نهاية له ، بين قوى قلبها الغامضة ووجهها الطيف الملطخ بالمساحيق .

وما تحدث الناس يوماً بعد ذلك في سان كلير وفي ب ... عن هذا العرس الذي أقيم في «كاماش» (حيث أكل وشرب اكثر من مئة مزارع وخادم) إلا وتذكروا ان العروس « التي ليست جميلة غير انها السحر نفسه » قد بدت للجميع في ذلك اليوم قبيحة بل رهيبة : « لم تكن تشبه تلك التي عرفوها بل كانت فتاة أخرى ... » . لقد رأى الناس أنها كانت مختلفة عن مظهرها العادي فقط ، وعزوا ذلك الى بياض زينتها وارتفاع الحرارة ، فلم يتعرفوا وجهها الحقيقي .

وفي عشية ذلك العرس الذي كان عرساً وسطاً بين اعراس الفلاحين والبورجوازيين ، أرغمت جماعة تلتمع بينها أثواب الفتيات ، سيارة العروسين ان تبطىء في سيرها ، وراح القوم يهللون لها ، وتجاوز العروسان على الطريق التي نثرت فوقها ازهار الطلح ، عربات تعوجّ في سيرها ، يقودها اناس أفرطوا في الشراب . وتتمتم تيريز اذ تفكر في الليلة التي تلت العرس : كان ذلك رهيباً... » ، ولكنها لا تلبث أن تستدرك فتقول : « لا ... لم يكن رهيباً جداً ...» ، أتراها تألمت كثيراً خلال هذه الرحلة الى البحيرات الايطالية ؟ لا ، لا ، كانت تقوم بهذه اللعبة : وهي ألا تفضح نفسها . إن الخطيب ليخدع بيسر ، أما الزوج ! ان أي انسان يستطيع ان يختلق الاكاذيب ، إلا ان أكاذيب الجسد تتطلب معرفة من نوع آخر . وليس من السهل على كل انسان أن يقوم بمحاكاة الرغبة والفرح والتعب السعيد . لقد عرفت تيريز كيف تخضع جسدها لهذا التظاهر ، وكانت تشعر من جراء ذلك بسرور مرّ المذاق . ان عالم المشاعر المجهول هذا الذي يرغمها على ولوجه كانت مخيلتها تتيح لها ان تتصور بأن هناك ، بالنسبة اليها أيضاً ، امكان وجود سعادة ، ولكن

أية سعادة ؟ وكما أننا امام مشهد مغمور تحت الامطار نتمثل كيف يكون هذا المشهد في ضوء الشمس ، هكذا اكتشفت تيريز اللذة .

لقد مرّ برنار — وهو الفتى ذو النظرة الموحشة ، الذي كان في قلق دائم من أن أرقام اللوحات لا تتفق مع ارقام (بيدكر) — انه رأى في زمن قصير جداً ما كان عليه ان يراه . يا له من انسان سهل خداعه ! لقد كان سجين متعته ، كتلك الخنازير الفتية الفتانة التي كان من العار أن ينظر اليها المرء من خلال القضبان وهي تنخر سعادة في معلفها. (وفكرت تيريز في نفسها : « كنت أنا المعلف ») كانت له سيماء الخنازير المتعجلة الرصينة ؛ لقد كان نظامياً . وكانت تيريز تخاطر فتقول له وهي في دهشة : « هل تعتقد حقاً أن هذا العمل رصين ؟ » ، فكان يضحك ويطمئنها . أين تراه تعلم ان يصنف كل ما له علاقة بالجسد ، وان يميز بين مداعبات الانسان الشريف ومداعبات الساديّ ؟ لم يكن يتردد قط ، لقد توقفا ذات مساء في باريس وهما عائدان وكان برنار قد خرج علانية من صالة للموسيقى لأن احد المشاهد قد صدمه . « ان الاجانب يرون هذا المشهد ، يا للخجل ! وانهم ليحكمون علينا من خلالها ... » ودهشت تيريز لهذا الرجل الخجول ، ذاك الذي كان عليها ان تتحمل منه نفسه ، بعد أقل من ساعة ، الخداع المتأني في الظلمة .

« يا لبرنار المسكين ، انه ليس أسوأ من غيره ! بيد ان الشهوة تحوّل الكائن الذي يقترب منا الى وحش لا يشبه ذاك الكائن في شيء . وليس كالهذيان ما يفصلنا عن شريكنا في الاثم : لقد رأيت برنار يغوص دائماً في المتعة. — أما أنا فقد اتظاهر بأنني ميتة ، كما لو ان هذا المجنون ، هذا المريض بالصرع ، كان يمكن أن يخنقني لأقل حركة اقوم بها . كان يكتشف في اغلب الاحيان، وحدته فجأة وهو في ذروة نشوته ، فيتوقف آنذاك انهاكه القاتم . وكان برنار يعود ادراجه فيجدني كما لو كنت ملقاة

على شاطىء البحر ، باردة الجسم ، منقبضة الاسنان » .

لم تصلها من آنّ إلا رسالة واحدة : فالفتاة لم تكن تحب ان تكتب كثيراً . ولكن بمعجزة ما ، لم يكن في الرسالة سطر إلا واعجبت به تيريز : كانت رسالة لا تصور عواطفنا الحقيقية بل العواطف التي يجب ان نشعر بها لكي نقرأها بفرح . كانت آن تتشكى من انها لم تستطع ان تذهب الى ناحية (فيليجا) منذ وصول ابن ازفيدو ، كانت قد رأت كرسيه الطويل من بعيد بين السرخس ، وكان المصدورون يخيفونها .

راحت تيريز تعيد قراءة هذه الصفحات ، أغلب الاحيان ، ولم تكن تنتظر وصول غيرهـــا . لهذا شعرت ، مواعيدَ وصول البريد ، بدهشة عظيمة (حدث ذلك صبيحة اليوم التــالي لتلك السهرة التي لم تكمل في صالة الموسيقى) حين تعرفت خط آنْ دولاتراف فوق ثلاث مغلفات . وان « بريداً باقياً » قد جعل هذه الصرة من الرسائل تصل الى باريس ، ذلك بأنها قطعــا عدة مراحل بسرعة « وهما على عجل ، كما قال برنار ، لملاقاة عشها » . أمــا الواقع فلأنها لم يكونا ليبقيا معــاً : فبرنار يموت ضجراً لبعده عن بندقياته وكلابه ، والفندق الذي يمتاز فيه عصير الرمان (بيكون) بطعم لا مثيل له في اي مكان آخر ، ثم هذه المرأة الباردة كل البرود ، الساخرة أشد السخرية ، والتي لا تظهر قط متعتهــا ، ولا تريد أن تتحدث عن أمور مسلية !... أما بالنسبة لتيريز فقد كانت تتمنى أن تعود الى سان كلير ، شأنها شأن طريدة تتضجر في سجن مظلم مؤقت ، فترغب في ان تعرف الجزيرة التي ستنفي فيهــا ما تبقى من عمرها . كانت تيريز قد قرأت بعناية التاريخ المطبوع على كل من المغلفات الثلاثة . وكانت قد فضت أقدمها تاريخاً حين ارتسمت على برنار علائم الدهشة وصرخ ببعض كلمات لم تدرك معناها ، لأن النافذة مفتوحة والشاحنات تغير سرعتها في هذا المفرق العام . لقد توقف عن متابعة حلاقة ذهنه ليقرأ رسالة من أمه.

ان تيريز مـا تزال الى الآن ترى صدارته التي تشبه صدارة السجـان ، وذراعيه العـاريتين العضِلتين وذاك الجلد الشاحب واحمرار الرقبـة والوجه الحاد الفجائي . كانت حرارة كبريتية قد انتشرت منذ ذلك الوقت المبكر في هذا الصبـــاح من شهر تموز . وكانت الشمس المستعرة تجعل الباحات الميتة ، من خلف الشرفة ، اكثر اتساخاً . كان برنار قد اقترب من تيريز وصرخ : « إن هذا لعنيف جداً ! حسن ! إن صديقتك آن لتتجـاوز الحد . من كان يظن ان أختي الصغيرة ... » .

وحينما استفسرت منه تيريز بنظرتها قال :

« هل تعتقدين أنها مغرمة بابن ازفيدو ؟ أجل ، تماماً : فهذا المسلول الذي من اجله وسّعوا (فيلميجا)... نعم يبدو انها جادة كل الجد ... وهي تقول انها ستقاوم حتى النهاية . لقد كتبت أمي تقول انها مجنونة كل الجنون ، وعسى ألا يعرف آل ديغيلـيم ذلك ! فلا شك في ان ابنهم الصغير سيعدل عن طلب يدها . هل وصلتك رسائل منها ؟ سنعرف الموضوع اخيراً ... ولكن هلا فتحتها ؟

– سأقرأهـا وفق تسلسلهـا الزمني ... وعلى كل فليس في وسعي ان أريك اياها .

انه ليعرفهـــا في مثل هذه الأمور معرفة جيدة ، فهي تعقد الأشياء دائماً . إلا ان الموضوع الاسامي اليوم هو أن تعود الفتاة الصغيرة الى جادة الصواب :

– ان اهلي يعتمدون عليك : فأنت تستطيـع ان تؤثر عليها أعمق التأثير .. بلى .. بلى ..! انهم ينتظرونك كأنك المنقذ » .

كان على برنار ، ريثما ترتدي ثيابهـا ، ان يمضي فيرسل برقيتين ويحجز مكانين في قطار الجنوب ، وكان في وسعها ان تعد حقائب السفر :

– ماذا تنتظرين لكي تقرئي رسائل الفتاة ؟

– انتظر خروجك » .

. . .

لبثت تيريز فترة طويلة بعد ان أغلق برنار البـــاب ، متمددة تدخن السكائر وعيناها على الحروف الكبيرة من الذهب المسود ، المثبتة في الشرفة المواجهة لها ، ثم مزقت الغلاف الأول . لا ، لا ، لم تكن تلك الساذجة الصغيرة العزيزة ، لا يمكن أن تكون تلك الفتاة التي نشأت في الدير ، ذات الذهن المحدود هي التي أبدعت هذه العبارات النارية ، لا يمكن ان ينبثق من هذا القلب الجاف – ذلك بأن قلبهـــا كان جافاً ولعل تيريز تعرف ذلك – نشيد الانشاد هذا ، ولا تلك الشكوى الطويلة السعيدة المنبعثة من امرأة ممسوسة ، ومن جسد يكاد يموت من الفرح . كان ذلك منذ السطر الأول :

... حين التقيت به ، لم استطع ان أعتقد انه هو : فقد كان يلعب ويركض مع الكلب وهو يطلق الصرخات . كيف كان يمكنني ان أتخيل ان ذاك المريض الكبير... إلا انه لم يكن مريضاً: فتلك مجرد احتياطات اتخذت نظراً للمصائب التي ألمت باسرته . بل انه ليس ضعيف البنيـة ، فهو بالأحرى اقرب الى النحافة ، ثم انه نشّيء في الدلال... لن تتعرفيني اذا ما رأيتني : فأنا التي أمضي لأحضر له معطفه حين يبرد الجو ...

ولو ان برنار دخل في تلك اللحظة الى الغرفـة لادرك ان هذه المرأة الجـالسة فوق السرير ليست امرأته بل كائن يجهله ، مخلوقة غريبة لا اسم لها . رمت لفافتها ومزقت غلافاً ثانياً :

... سأنتظر ما امتدّ الزمان ؛ ما من مقاومة تخيفني ؛ بل ان حبي لا يشعر بذلك . انهم يحتجزونني في سان كلير ، غير ان ارجلوز ليست بعيدة بحيث نستطيـع أنا وجان أن نجتمع . هل تذكرين كوخ الحمام ؟ انت التي اخترتِ ، يا عزيزتي ، الاماكن التي اتيـح لي ان اعرف فيهـا

هذا الفرح العظيم ... اوه ! حذار أن تظني اننـا نرتكب أي اثم . انه رقيق كل الرقة ! وليست لديك أية فكرة عن شاب من هذا القبيل . لقد درس كثيراً ، وقرأ كثيراً مثلك : الا ان ذلـك لا يزعجني حين اراه عند الشاب ، ولم يخطر لي أن اتأكده . ما الذي لا اضحي به كي يكون لي علمك ! عزيزتي ، ما هذه السعادة التي تملكينها اليوم اذن والتي مـا زلت أجهلها ، حتى ان مجرد الاقتراب منها يبعث في نفسي كل هذه البهجة ؟ وحين ألبث بالقرب منه ، في كوخ الحمام الذي كنت تودين دائمـاً ان نحمل اليه زادنا ، فانني أشعر ان سعادتي تشبه شيئاً يمكنني ان ألمسه ، واقول في نفسي ان هناك ، مع ذلك ، فرحاً فوق هذا الفرح ، وحين يبتعد جان ، ممتقع الوجه ، فـان ذكرى مداعباتنا وانتظار مـــا سيحدث في الغـد ، كل ذلـك يجعلني اصمّ اذني عن التنهدات والنداءات وشتائم الناس المساكين الذين لا يعرفون ... ولم يعرفوا قط ... عفوك يا عزيزتي : فأنا احدثك عن هذه السعادة كما لو كنت لا تعرفينها ، ومع ذلك فما أنا الا مبتدئة اذا ما قيست اليك : ولهذا فانا على ثقة تامة بأنك ستقفين الى جانبنا امام كل الذين يبيتون لنا الشر ...

مزقت تيريز الغلاف الثالث ، لم يكن فيه غير بضع كلمات مخربشة :

تعـالي ياعزيزتي ، فقد فصلوا فيما بيننـا : انهم يراقبونني ، ويعتقدون انك ستقفين إلى جانبهم . قلت لهم بأنني سأرضى بك حكماً . سأشرح لك كل شيء : انه ليس مريضاً ... انني سعيدة وأنا أتألم ، انني سعيدة بأن أتألم بسببه واحب ألمه على أنه علامة الحب الذي يكنه لي ...

كفت تيريز عن القراءة ، وبينما كانت تدخـل الورقة في المغلف ، لاحظت ان هنـاك صورة لم تكن قد رأتهـا أول الأمر ، فتـأملت هذا الوجـه قرب النـافذة : كان شابـــاً تبدو رأسه قوية جداً بسبب شعره القاسي . وتعرفت تيريز المكان من خلال هذه الصورة : انه المنحدر الذي

يقف فيه جان ازفيدو كأنه داوود (كان وراءه سهل ترعى فيه الخراف) وكان يحمل رداءه على ذراعيه، وقميصه مفتوح بعض الشيء ... «هذا ما يدعوه آخر مداعبة مسموح بها» ... رفعت تيريز عينيها ودهشت لمرأى وجهها في المرآة، وبذلت جهداً كيما ترخي اسنانها المشدودة وتبتلع لعابها. فمسحت بالكولونيا صدغيها وجبينها. «لقد عرفت هذا الفرح ... وماذا عني أنا؟ لماذا لا اشعر به أنا أيضاً؟» بقيت الصورة على الطاولة، وبالقرب منها دبوس يلتمع ...

«لقد فعلت ذلك، أنا التي فعلت ذلك» ... كانت تيريز تكرر في القطار المهتز الذي يغذ السير في أحد المنحدرات، «لقد مرّ على ذلك سنتان، في غرفة الفندق تلك، حيث أخذت الدبوس وثقبت صورة هذا الفتى في مكان القلب – لم أفعل ذلك بغضب بل بهدوء كأنني أقوم بعمل عادي – ثم رميت الصورة بعد أن ثقبت في المغسلة وشددت دافعة الماء».

. . .

دهش برنار اذ بدت زوجته صامتة، حين عاد، كأنها انسان فكر طويلاً، بل كأنها انسان كان قد اوقف مخططاً لسلوكه. الا انها اخطأت اذ اكثرت من التدخين: فهي تسمم نفسها بيدها. ورأت انه ينبغي ألا يثار كل هذا الاهتمام بنزوات فتاة صغيرة. وجهدت تيريز في أن توضح الأمر... كان برنار يتمنى أن تطمئنه تيريز – وهو فرح بأن في جيبه بطاقتي العودة – قد سرّه أن ذويه قد لجأوا بخاصة الى زوجه. لقد أنبأها بأن ذلك سيكلف كثيراً، اما عن آخر إفطار يتناولانه قبل سفرهما فسيذهبان الى أحد المطاعم في الغابات. وتحدث برنار وهما في السيارة عن مشاريعه في افتتاح موسم الصيد، كان على عجل في أن يختبر هذا الكلب الذي رباه (باليون) له. لقد كتبت له امه بأن المهر لم يعد يظلع بفضل الكي ... لم يكن آنذاك الا عدد قليل من الناس في هذا

المطعم الذي كانت وجبته ذات الاصنـــاف المتعددة تخجلها . وتذكرت تيريز هذه الرائحة : انها رائحة الغرنوق والمـاء المملح . لم يكن برنار قد شرب نبيذ الراين قط : «عجباً ، انهم لا يقدمونه لنـا» . ولكن ليس كل الايام ايام عيد . كان برنار بجسمه الضخم يخفي القـاعة عن تيريز . وكانت السيـارات تنزلـق خلف الالواح الزجـــاجية الكبيرة ثم تتوقف صامتة . وكانت تيريز ترى حركة عضلات برنار بالقرب من اذنيه ، لا بد انهـا العضلات الصدغية . وبدا تواً بعد الجرعات الاولى احمر اللون شديد الاحمرار : صبي من الريف جميل لا ينقصه منذ اسابيع الا مدى يستطيع فيـه ان يروي نصيبـه اليومي المحدود من الغذاء والكحول . لم تكن تكرهه ، ولكن أية رغبة تجتاحهـا في ان تكون وحدهـــا لكي تفكر بألمها ، وتبحث عن مكان تتألم فيه ! حسبها الا يكون هنا ، وألا ترغم نفسها على أن تـأكل وتبتسم ، وألا تشعر بهذه الحـــاجة في أن تكيف حركات وجهها وتطفىء نظرتها ، ليتها تستطيع ان تثبت ذهنهـا بحرية على هذه النقطة الساحرة : مخلوقة تهرب خـارج الجزيرة المقفرة التي يخيل اليك انهـا ستحيا فيها قربك حتى آخر عمرهـا ؛ وتجتـاز الهوة التي تفصلك عن الآخرين ... كلا : فأي كائن استطاع يوماً ان يخرج من كوكبه ؟ لقد حسبت آن دولاتراف دائمـاً في عداد الناس البسطـاء . ولم تكن تيريز ترى الا خيـال آن حين كانت تنظر اليهـا وهي نائمـة على ركبتيهـا أيام عطلها المنعزلة : أمـا آن دولاتراف الحقيقية فلم تعرفها قط : تلك التي تتبع اليوم جان أزفيدو الى كوخ الحمام المهجور بين سان كلير وارجلوز .

«مـا بك ؟ اراك لا تأكلين ؟ يجب الا نبقي لهم شيئاً من الطعام : فتلك خسارة مهما قل ثمن الطعام . هل تتضايقين من الحرارة ؟ الا تريدين ان تلتفتي اليّ ؟ أخشى ان يكون القلق قد تسرب الى نفسك منذ الآن» ...

ابتسمت تيريز ، ابتسم وجهها فقط ، زعمت أنها تفكر بمغامرة آن (كان يجب أن تتحدث عن آن) وحين اعلن برنار انه اطمأن منذ ان تولت الموضوع بنفسها ، سألته المرأة الشابة لماذا يقف أهله هذا الموقف العدائي من هذا الزواج . فظن أنها تسخر منه ، ورجاها الا تشرع في تبني المفارقات :

« أنت تعلمين أنهم يهود قبل كل شيء : فقد عرفت امي الجد ازفيدو ذاك الذي رفض العماد» .

الا ان تيريز زعمت انه لم يكن في بوردو اقدم من هذه الاسماء اليهودية البرتغالية .

«.كانت اسرة ازفيدو تتصدر المكان يوم كان اسلافنا الرعاة المساكين يرتجفون من الحمى على ضفاف مستنقعاتهم .

– كفى يا تيريز ، لا تناقشي رغبة في النقاش ، ان كل اليهود اناس لا قيمة لهم ... ثم ان هذه اسرة تالفة – كل الافراد فيها مسلولون حتى نقا عظامهم ، وكل الناس يعرفون ذلك» .

واشعلت لفافة بحركة كانت تغيظ برنار دائماً :

«تذكر اذن بأي مرض مات جدك ؟ وابوه من قبل ؟ هل اهتممت اذ تزوجتني بمعرفة أي مرض اورثتنيه امي ؟ ألا تعتقد أننا واجدون في أسلافنا عدداً كافياً من المصدورين والمصابين بالزهري بحيث يسممون العالم ؟

– انت تبعدين في تفكيرك يا تيريز ، اسمحي لي ان اقول لك انك يجب ألا تتعرضي للاسرة ولو كنت تمزحين وتتعمدين مناكدتي » .

ونفخ اوداجه غيظاً – وهو يريد أن ينظر من علُ والا يبدو سخيفاً أمام تيريز في وقت معاً . ولكنها ألحت تقول :

«إن اسرتينا لتضحكاني بحذرهما الذي يشبه حذر الخلد ! ان خوفهم من العيوب الظاهرة لا يضاهيه الا عدم مبالاتهم بالعيوب المستترة تلك التي تفوقها عدداً ... فأنت نفسك تستعمل ذلك هذا التعبير : امراض خفية ... أليس كذلك ؟ أليست اكثر الامراض خطراً على الجنس خافية في حقيقتها ؟ ان اسرتينا لا تفكران بذلك أبداً ، وهما على اتفاق تام مع ذلك في اخفائها وستر اقذارهما : فلولا الخدم لما عرف أحد شيئاً البتة عنا . ومن حسن الحظ أن هناك خدماً....

– لن اجيبك عن هذا الموضوع : فحين تقتحمين موضوعاً فمن الأفضل الانتظار ريثما تنتهين منه . أما بالنسبة الي فليس هناك الا نصف مرض : وأنا اعرف انك تمزحين . اما في المنزل فانت تعلمين ان هذا الكلام لا ينطلي عليهم ، فنحن لا نمزح في امور الاسرة» .

الاسرة ! تركت تيريز لفافتها تنطفيء ، ونظرت بعين حادة الى هذا القفص ذي القضبان الحديدية الحية ، هذا الحاجز المنسوج من الآذان والعيون حيث تنتظر الموت وهي جامدة مقرفصة وذقنها فوق ركبتها وذراعاها تحيطان بساقيها .

«كفى ، يا تيريز ، لا تتخذي هذه السيماء : ليتك ترين نفسك ...

فابتسمت واستعادت قناعها :

«كنت ألتهي ... ما اغباك يا عزيزي» .

ولكن حين كانا في السيارة ، واذ اقترب برنار منها ، فان يدها راحت تبعده وتدفعه عنها .

في ذلك المساء قبل عودتها الى البلدة ، ناما منذ الساعة التاسعة ، وابتلعت تيريز قرصاً منوماً ولكنها انتظرت مجيء النوم طويلاً . وخلال لحظة ما غام فكرها الى ان التفت برنار في همهمة خفية ، فشعرت آنذاك بهذا الجسم الكبير ينوء عليها . فدفعته ، ولئلا تشعر باواره ، تمددت على

طرف الفراش ، ولكنه بعد دقائق عدة عاد فانقلب نحوها ، كأنما كان جسده ما يزال يحيا رغم روحه الغائبة ، وحتى اثناء نومه كان يبحث عن فريسته التي اعتـــادت عليــه . وابعدته من جديد بيد فظة لم توقظه مع ذلك ... آه ! ليتها تبعده مرة واحدة فيختفي الى الابد ! وتلقيه خارج السرير ، في الظلمات .

كانت ابواق السيارات تتجـــاوب خلال باريس المظلمة ، كما تتجـاوب الكلاب والديكة في ارجلوز حين يبزغ القمر . لم تكن تهب أية رطوبة من الشارع . اشعلت تيريز المصباح ونظرت وهي مرتفقة وسادتها الى هذا الرجل الجامد بالقرب منها – هذا الرجل في سنة السابعة والعشرين . لقد دفع الاغطية عنه بل لم يكن تنفسه مسموعـــاً وكان شعره المبعثر يغطي جبهته التي مـا تزال صافية ، وصدغيه الخاليين من الغضون . كان نائمـاً ، كآدم اعزل عار ، وكان نومه عميقاً كأنه ينـام نوماً ابدياً . ونهضت المرأة بعد ان ألقت الغطاء على هذا الجسم وبحثت عن احدى الرسائل التي كانت قد توقفت عن قراءتها ، واقتربت من المصباح :

.... لو سألني أن اتبعه لتخليت عن كل شيء دون ان ابالي بشيء . اننـــا نتوقف على حافة آخر مداعبة ، ولكن بفضل ارادته ، لا نتيجة لمقاومتي – والاصح انه هو الذي يقـاومني ، وانا التي اتمنى ان ابلغ هذه النهـايات المجهولة التي يكرر على مسمعي قوله بان مجرد الاقتراب منهـــا يتجاوز كل المباهج ، وان الاستماع اليه يلزمني بأن أظل في الجهة الاخرى ، انه لفخور بقدرته على كبح نفسه في المنحدرات حيث يقول ان الآخرين ما ان يسلكوها حتى ينزلقوا فيها من غير ما مقاومة ...

. . .

فتحت تيريز النافذة ثم مزقت الرسائل قطعاً صغيرة وهي منحنية على هذه الحجارة التي لم يكن يتجاوب فيها آنذاك غير صوت عجلة واحدة في تلك الساعة المبكرة قبل الفجر . تناثرت مزقُ الورق وتوضعت فوق شرفات المباني السفلية . أية ارياف كانت تبعث اريج النبات الذي تستنشقه المرأة الشابة في صحراء القار هذه ؛ وتخيلت بقعة جسمها تغلي على الرصيف ، ومن حولها يتدافع العمال والجوالون ... ان لك لخيالاً قوياً يا تيريز حتى ليقتلك . والواقع انها لم تكن تتمنى أن تموت ، ذلك بأن عملاً عاجلاً يدعوها الى انجازه ، لا عن ثأر أو كراهية ، بل تلك الصغيرة الغبية هناك ، في سان كلير ، تلك التي تظن أن السعادة امر ممكن ، يجب عليها ان تعرف كما تعرف تيريز ، ان لا وجود للسعادة . واذا لم يكن بينهما من شيء مشترك غير ذلك ، فليكن بينهما هذا على الاقل ! الملال وافتقاد كل مهمة رفيعة او واجب عظيم ، وعدم انتظار غير العادات اليومية المنحطة — وحدة لا عزاء لها . كان الفجر يضيء سقوف المنازل ، فاستلقت بجانب الرجل الجامد ، ولكنها ما ان تمددت قربه حتى عاد فاقترب منها .

واستيقظت وقد انجلت لها الامور وتوضحت . لماذا تطيل الطريق ؟ لقد دعتها أسرتها لمساعدتها ، وستعمل ما تطلبه منها الاسرة ، وهكذا فستكون على ثقة من انها لن تحيد عن ذلك قيد أنملة . أيدت تيريز برنار حين كان يكرر قولته بأن آنّ اذا ما فاتتها فرصة الزواج من ديغيليم فسيكون ذلك كارثة كبرى . ان آل ديغيليم ليسوا من طبقتهم : فجدهم كان راعياً ... نعم ، إلا أنهم يملكون أجمل الصنوبر في المنطقة . وليست آنّ ، في آخر الأمر ، غنية جداً : فليس هناك ما تنتظره من أبيها غير عدد من الكرمات في المنحدرات قرب لانجون ، تغرقها المياه مرة كل سنتين . يجب ألا يفوت آن الزواج من ديغيليم مهما كلف الأمر .

كانت تيريز تتقزز من رائحة الشوكولا في الغرفة ، وان انحراف مزاجها الخفيف هذا ليؤيد دلائل أخرى : فهي حامل حديثاً . قال برنار : « من الخير ان نحصل عليه بسرعة ، وإلا فلن يكون لنا وقت للتفكير فيه فيما بعد » . وتأمل باحترام المرأة التي تحمل في احشائها السيد الوحيد للصنوبر الذي لا يحصى عداً .

٥

سان كلير ، ستصل عما قريب الى سان كلير ... تقيس تيريز بنظرها الطريق التي اجتازها تفكيرها ، هل يتاح لبرنار ان يلحق بها الى هناك ؟ ليست تجرؤ ان تأمل منه ان يسلك بخطى بطيئة هذه الطريق الوعرة ؛ ومع ذلك فلم تقل بعد شيئاً مما له أهمية . « حين أبلغ معه هذا الفج الذي انتهيت اليه ، فما يزال عليّ بعد ذلك أن أكشف كل شيء » . انحنت تيريز على لغزها ذاته ، وساءلت البورجوازية الصغيرة المتزوجة تلك التي امتدح الناس كافة تعقلها بعد اقامتها في سان كلير ، وبعثت في ذاكرتها الاسابيع الاولى التي عاشتها في منزل اسرة زوجها الرطب المظلم ، كانت مصاريع النوافذ مغلقة كلها من جهة الساحة العامة ، أما في الجهة اليسرى ، فقد كانت نافذة صغيرة تطل على الحديقة العابقة بأريج دوار الشمس والغرنوق والتبغ . كانت تيريز في جيئة وذهاب تقوم بمساراتها ومؤامراتها بين لاتراف وزوجه القابعين في عقر صالة مظلمة من الطابق الاول ، وآن المائة في هذا البستان الذي حظر عليها الخروج منه . كانت تقول للاتراف وزوجه : « أرجوكما ان تتساهلا قليلاً ، اعرضا عليها أن تسافر قبل ان تتخذ اي قرار : فأنا اضمن لكما انها ستطيعكما في هذه النقطة ، وسأتصرف أنا في الأمر خلال غيابكما » . كيف ذلك ؟ كان آل لاتراف يستشفون انها ستعقد صداقة مع ازفيدو الشاب : « لن يفيدك

الهجوم المباشر في شيء يا أمي». واذا ما أصغى الانسان الى السيدة لاتراف ، خيل اليه أن ما من شيء قد افتضح حتى الآن ولله الحمد . كانت الوصيفة الآنسة مونو هي وحدهـا التي حضرت هذه المسارة . وكانت قد أوقفت عدداً من رسائل آن : « إلا ان هذه الفتاة أشبه شيء بالقبو ، ثم اننـا ممسكون بها فليست تستطيع أن تشيع شيئاً » .

كان هكتور دولاتراف يكرر قوله : « فلنسعَ ألا تتألم كثيراً ...». أما هو الذي كان فيما مضى يغض الطرف عن كل نزوات آن فـلم يكن يستطيـع إلا أن يؤيد زوجه فيقول : « لا يمكن ان يُقلى البيض دون أن يُكسر ... » . ويقول ايضاً : « ستشكر لنا ذلك ذات يوم » . نعم ، ولكن حتى ذلك الحين ألا يمكن أن يسبب لهـا الألم مرضاً ما ؟ صمت الزوجان ونظراتهما غامضة ، لا شك في انهما كانا يتابعان في ذهنهما ، في الشمس المحرقة ، ابنتهما المنهوكة القوى التي كان كل طعام يفزعهـا : فتسحق الازهار التي لا تراهـا وتسير بجانب الشباك بخطى الوعل ، وهي تبحث عن مخرج ... هزت السيدة دولاتراف رأسهـا وقالت : « لست استطيـع ، مع ذلك ، ان اشرب مرق اللحم بدلاً منها ، أليس كذلك ؟ انها تلتهم الفواكه في البستان كي يتاح لهـا أن تترك صحنها فارغاً اثناء الغداء » . وقال هكتور دولاتراف : « ستؤاخذنا فيما بعد أننا رضينا... ولن يكون ذلك إلا بسبب البؤساء الذين ستنجبهم للعالم ... كانت زوجه حاقدة عليه اذ بدا انه يسعى لالتماس المعاذير : « من حسن الحظ ان آل ديغيليم لم يعودوا بعد . وأن من حظنـا انهم يتمسكون بهذا الزواج تمسكهم ببؤبؤ عينهم ... » . وانتظر أن تخرج تيريز من القاعة كي يسأل احدهما الآخر : « ترى ماذا اوحوا اليها في الدير ؟ أما هنا فلم ترَ أمامها إلا الأمثلة الصالحة ، لقد راقبنا قراءتها ... قالت تيريز ان ليس ثمة أسوأ من قراءة الروايات الغرامية المسموح بقراءتها لاثارة البلبلة في نفوس الفتيات .

إلا انها شديدة التناقض ... ثم ان آن ليست مصابة بهوس القراءة والحمد لله ؛ وليس لي أي مأخذ عليها من هذه الناحية ، وهي في هذه النقطة فرد منسجم مع الاسرة كل الانسجام . والواقع اننا اذا استطعنا ان نجعلها تغير الهواء ... لعلك تذكر أن ذهابها الى (ساليس) قد افادها بعد تلك الحصبة المعقدة من النزلة الصدرية ؟ ستذهب حيث تشاء ، وليس لي ان اقول غير ذلك . انها لفتاة تدعو الى الرثاء فعلا » . تنهد السيد دولاتراف وقال بصوت مخنوق : « أوه ! رحلة معنا ! ... » وأجاب زوجته الصماء بعض الشيء التي سألته « ماذا قلت ؟ » — « لا شيء » . أية رحلة غرامية وأية ساعات مباركة من شبابه العاشق يتذكر هذا الشيخ فجأة وهو في أعماق وضعه حيث حفر لنفسه حفرة يعيش فيها ؟

. . .

كانت تيريز قد لحقت الفتاة التي كانت اثواب العام الماضي قد اصبحت واسعة عليها جداً . صرخت آن اذ اقتربت منها صديقتها : « وماذا بعد ؟ » . ثمة رماد الممرات ، والبراري الجافة الصرصر ، وعبق العزنوق المحترق ، وتلك الفتاة ، بعد ظهر ذلك اليوم من ايام آب الاكثر احتراقاً من أية نبتة ، ولم يكن هناك من شيء لا تجده تيريز في قلبها . كان بعض الوابل العاصف يرغمها بعض الاحيان على الالتجاء الى المخبأ . وكان رنين حبات البرد يتردد فوق الزجاج .

« أي ضير في ذهابك ما دمت لا ترينه ؟

— انني لا اراه ، ولكنني اعرف انه يتنفس على بعد عشرة كيلومترات من هنا . وحين تهب ريح الشرق اعرف انه يسمع صوت الجرس في الوقت نفسه الذي اسمعه انا فيه . هل وجود برنار في ارجلوز أو في باريس سيان بالنسبة اليك ؟ انني لا أرى جان ولكنني اعرف انه ليس عني ببعيد ، ولا أحاول يوم الاحد في الكنيسة ان التفت لأننا ، من

مكاننا ، لا نرى إلا المذبح وحده ، ولأن عموداً واحداً يفصلنا عن حضور الذبيحة . أما حين تنتهي الصلاة ...

– ألم يحضر يوم الاحد الى الكنيسة ؟

كانت تيريز تعرف ذلك ، وتعرف ان آن التي جرتها أمها كانت تبحث عبثاً بين الجمهور عن وجه غائب .

« ربما كان مريضاً ... إنهم يوقفون رسائله ؛ ولست استطيع ان اعرف شيئاً .

– ومع ذلك من الغريب ألا يجد وسيلة ليرسل اليك كلمة .

– تيريز ، من فضلك . . . اجل ، انني اعرف جيداً أن موقفك دقيق ...

– وافقي على السفر ، ولعلي ، خلال غيابك ...

– لست استطيع ان ابتعد عنه .

– سيذهب على أية حال ، يا عزيزتي ، وسيغادر ارجلوز بعد بضعة أسابيع .

– آه ، اصمتي . ان هذه لفكرة لا يمكن تحملها . ثم لا تصلني منه أية كلمة تساعدني على ان أحيا . لقد بدأت أموت : وعليّ في كل لحظة ان أتذكر كلماته التي أثارت فيّ اكبر مقداو من الفرح ، ولكنني لكثرة ما رددتها ، بلغ بي الأمر انني لم أعد واثقة من انه قالها فعلاً . اليك هذه مثلاً ، ففي آخر لقاء لنا ، قال لي ويخيل اليّ انني ما ازال اسمعه : « ليس لي في حياتي شخص سواك ... » . لقد قال هذا ، اللهم إلا اذا كان قد قال : « أنت أثمن ما في حياتي ... » ، فلست استطيع ان أتذكر ما قاله بدقة .

كانت تبحث ، مقطبة الحاجبين ، عن صدى كلمة العزاء التي وسّعت معناها الى ما لا نهاية له .

« ولكن ما شكل هذا الشاب ؟
– لست تستطيعين أن تتخيليه .
– هل يختلف كثيراً عن غيره ؟
– وددت لو أصفه لك ... إلا انه فوق ما في وسعي ان اصف... ورغم كل شيء فقد يبدو لك عادياً جداً إلا انني لعلى ثقة بأنه ليس كذلك » .

لم تكن تميز شيئاً خاصاً في الشاب الفاتن رغم كل ما تكنه له من حب . وفكرت تيريز في ذاتها قالت : « أما أنا فان الهوى يجعلني أكثر ذكاء ، ولا شيء يفلت مني حول الشخص الذي سأرغب فيه » .

« تيريز ، هل تقابلينه اذا وافقت على السفر ، وهل تحملين إليّ كلماته ؟ هل تحملين اليه رسائلي اذا سافرت ، اذا كانت لي الشجاعة في ان اذهب ... » .

غادرت تيريز مملكة النور والنار وعادت فدخلت كدبور قاتم ، غرفة المكتب حيث كان الاهل ينتظرون ان تخف وطأة الحر وأن تذعن فتاتهم . وكان لا بد من كثير من الذهاب والاياب كي تصمم آن أخيراً على الرحيل . ولا شك في ان تيريز لم تكن لتتوصل الى ذلك لولا عودة آل ديغيليم الوشيكة . كانت ترتجف امام هذا الخطر الجديد . وكانت تيريز تكرر على مسامعها انه بالنسبة لشخص في مثل هذا الغنى « لم يكن ديغيليم هذا سيئاً جداً » .

« ولكنني يا تيريز ما كدت انظر اليه حتى استبنت ان له نظارتين وانه اصلع وشيخ .
– انه في التاسعة والعشرين من عمره .
– هذا ما أقوله لك : انه شيخ – ثم سواء أكان شيخاً أم لم يكن » .

كانت اسرة لاتراف تتحدث اثنـــاء تناول العشاء عن بلدة (بياريتز) وتعنى بايجاد فندق فيهـــا . وكانت تيريز تلحظ آن ذلك الجسم الجامد الخالي من الروح . وكررت السيدة دولاتراف قولها : « أرغمي نفسك قليلاً ... فالناس يرغمون أنفسهم » .

قربت آن الملعقة من فمها بحركة آلية . لم يكن في عينيها أي بريق . ولم يكن ثمة بالنسبة اليهـا أي شيء او انسان مـــا عدا ذاك الغـائب . وكانت ابتسامة تتيه على شفتيها بعض الاحيان إذ تذكر كلمة سمعتها ، ومداعبة مستها ، يوم كانت يد جان ازفيدو القوية جداً تمزق سترتهـــا قليلاً في كوخ مصنوع من اغصان الاشجار . كانت تيريز تنظر الى جذع برنار المنحني على صحنه : ولما كان جالساً قبالة النور فلم تكن ترى وجهه ؛ ولكنها كانت تسمع صوت مضغه البطيء ، واجتراره للطعام المقدس ، فقامت عن المائدة . قالت حماتهـا : انها تؤثر ألا يراها احد . وددت لو أهدهدها ولكنها لا تحب ان يُعنى بهـا أحد ، وان ضيقها هو أقل شيء يمكن أن يباو انساناً في وضعها . ورغم كل ما قالت لها ، فإنها ما تزال تفرط في التدخين » . وخطرت ببـــال السيدة ذكريات الحمل . « انني اذكر انني حين كنت انتظر مجيئك كان عليّ ان أشم كرة من المطاط : ولم يكن غيرها ما يعيد معدتي الى حالتها السوية » .

. . .

«– أين انت يا تيريز ؟

– هنا ، على المقعد .

– آه ! صحيح ، فأنا أرى لفافتك ».

جلست آن وأسندت رأسهـــا الى كتف جـامد ونظرت الى السماء وقـالت : « انـه يرى هذه النجوم ، ويسمع رنين ناقوس المغيب » ...

وأضـــافت : «قبليني يا تيريز» . الا ان تيريز لم تنحن نحو هذا الرأس الواثق بها ، بل اكتفت بأن تسألها :

– هل تتألمين ؟

– كلا ، لست أتألم في هذا المساء : فقد اقتنعت بـأنني سالحق به بطريقة ما ، وأنا الآن مطمئنة . والمهم في الأمر أن يعرف ذلك وسيعرفه بواسطتك : لقد قررت أن اسافر ، ولكنني سأمر في عودتي من خلال الجدران ، وسأرتمي على فؤاده ان عـاجلاً أو آجلاً ، واني واثقة من ذلك ثقتي من انني احيا . كلا يا تيريز ، كلا : لا تلقي علي أنت أيضاً درساً في الاخلاق ، ولا تحدثيني عن الاسرة ...

– لست افكر بالاسرة يا عزيزتي ، بل افكر فيه : فليس يقع المرء على هذا النحو في حياة انسان : ان له هو ايضـاً اسرة ومصالح وعملاً ، وربما كانت له علاقة ...

– كلا ، فقد قال لي : «ليس في حياتي شخص سواك» . وقـال لي مرة اخرى : «ان حبنا هو الشيء الوحيد الذي اتعلق به في هذا الحين»..

– في هذا الحين ؟

– ماذا تظنين ؟ اتظنين انه لم يكن يعني الا هذه الثانية الراهنة ؟

لم تعد تيريز بحاجة لأن تسألها هل تتـألم : فقد كانت تسمع ألمهـا في الظلال ، ولكن من غير ان تشعر بأية شفقة نحوها ، وفيمَ تشفق عليها ؟ لا بد ان الانسان يجد عذوبة في تكرار اسمٍ أو كنية تشير الى كائن ما يرتبط به قلبنـا ارتباطاً وثيقـاً . وان مجرد التفكير بأنه حي يرزق ، وبأنه يتنفس وينـــام في المساء ورأسه مستند الى ذراعه المتينة ، وانـه يستيقظ في الفجر وان جسده الفتي يحتل حيزاً في الضباب ...

« هل تبكين يا تيريز ؟ أمن أجلي تبكين ؟ أما أنت فتحبينني ».

كانت الفتاة الصغيرة قد جثت على ركبتيها ، واسندت رأسها الى صدر تيريز ، ولم تلبث أن نهضت فجأة :

ولقد شعرت بشيء اجهله يتحرك تحت جبهتي ...

– اجل انه يتحرك منذ بضعة أيام .

– الصغير ؟

– نعم : فقد بدأت تدب فيه الحياة» .

عادتا الى المنزل متخاصرتين كما كانتا تفعلان في الايام الخوالي على طريق نيزان وارجلوز . وتذكرت تيريز أنها تخاف من هذا العبء المرتجف ، كم من أهواء ، في اعماق كيانها ، يجب ان تلج هذا الجسد الذي لم يتم تكوينه بعد !

وعادت الى ذاكرتها ، في ذلك المساء ، صورتها وهي جالسة في غرفتها امام النافذة المفتوحة (كان برنار قد صرخ من أول الحديقة : لا تشعلي المصباح فقد يدخل البعوض) وحسبت الشهور التي يجب ان تنقضي حتى ولادتها هذه ، وودت لو تعرف الماً كي تلتمس منه الا يبرز الى الوجود أبداً هذا المخلوق المجهول الذي ما يزال ممتزجاً بأحشائها .

٦

من الغريب أن تيريز لا تتذكر الأيام التي تلت رحيل آن واسرة لاتراف إلا كما تتذكر فترة خامدة . أما في أرجلوز حيث تم الاتفاق على أن نجد وسيلة لتحمل فيها أزفيدو هذا على ان يتخلى عن علاقته ، فلم تكن تفكر إلا بالراحة والنوم . كان برنار قد قبل الا يقيم في منزله بل في منزل تيريز الأكثر راحة حيث تجنبهما العمة كلارا كل عناء العمل في المنزل . وما همّ تيريز من الآخرين ؟ فليدبروا أمورهم وحدهم ، فلا شيء يسرّها غير هذا التبلد الى ان تنقذ منه . كان برنار يثير حفيظتها كل صباح ، اذ يذكرها بوعدها الذي قطعته على نفسها في لقاء جان ازفيدو ، غير ان تيريز كانت تجافيه : ولم تكن تتحمله بكثير من اليسر. وقد يكون لحملها ، كما يعتقد برنار ، أثر في تعكر مزاجها . ولقد تعرّض هو نفسه في تلك الأثناء الى البوادر الاولى لضيق مألوف جداً لدى افراد اسرته ، رغم انه من النادر أن يظهر قبل الثلاثين . وكان الخوف من الموت يُدهش ، أول الامر ، لدى هذا الشاب القوي البنية . ولكن بماذا عسى ان يجيبه المرء حين يسمعه يحتج فيقول : « انكم لا تعرفون ما اشعر به ؟ ...» ان اجسام اولئك الذين يأكلون كثيراً ، والمتحدرين من سلالة عاطلة عن العمل تتغذى كثيراً ، ليس لهم من القوة إلا مظهرها. شأنهم شأن صنوبرة مزروعة في تربة من الحقل مخصبة ، انهـا لتنمو نمواً

سريعاً : ولكن سرعان ما يتلف قلب الشجرة ولا بد من قطعها آنذاك وهي في شرخ قوتها . وكان الناس يكررون على مسمع برنار قولهم : « هذا شيء يضايق » . أما هو فقد كان يشعر بهذا الخدش شعوراً طفيفاً جداً ، ثم انه ، وهذا أمر لا يخطر ببال ، لم يكن يأكل ، فلم يعد يشعر بالجوع . « لماذا لا تذهب فتستشير طبيباً ؟» ، كان يهز كتفيه ويتظاهر باللامبالاة . والحق ان عدم اليقين كان يبدو له أقل خطراً من حكم بالموت قد يصدر عليه من فم الطبيب . وكانت ثمة حشرجة توقظ تيريز بعض المرات في الليـل فتهب مذعورة : فتمسك يد برنار بيدهـا وتضعها على صدره الايسر كيما تتأكد من تواتر ضربات القلب . فكانت تشعل الشمعة وتنهض وتسكب (الفاليريانات) في كأس من الماء ، وتفكر في نفسهـا : أية مصادفة تجعل هذا الخليط ذات تأثير مهدىء ؟ لمـاذا لا يكون مميتاً ؟ لا شيء يهدىء ، ولا شيء ينيم حقاً ، ما لم يكن الهدوء والنوم هدوءاً ونوماً أبديين . إذن ففيم يخاف هذا الرجل الكثير التشكي كل ذاك الخوف مما يمكن ان يهدئه الى الأبد ؟ كان ينام قبلها . كيف يمكنها ان تنتظر ان تنام بجانب هذا الجسم الضخم الذي يسبب لها غطيطه غماً قاتلاً في بعض الاحيان ؟ الحمد لله انه لم يعد يقترب منها — كان فعل الحب يبدو له اكثر الاعمال خطراً على قلبه . كانت ديكة الفجر توقظ الزراع ، وجرس سان كلير يرن في ريح الشرق ، فتجد عينـا تيريز سبيلهما الى الغمض آخر الأمر . كان جسد الرجل يتحرك من جديد ، فيرتدي ثيابه بسرعة ، ثياب الفلاحين (ولأياً ما يبلل رأسه بالماء البارد). وكان يسرع الى المطبخ كالكلب ، نهماً الى البقـايا المحفوظة في الخزانة ، فيفطر على ما يكاد يقيم الأود ، كأن يأكل قطعة من اللحم البـارد ، أو عنقوداً من العنب أيضاً ، وكسرة خبز جففهـا الهواء ؛ وكانت تلك وجبته الوحيدة طول النهـار ! ويلقي بالفتات الى (فلامبو) و (ديان)

فتقرقع بها فكاها . الضباب يعبق برائحة الخريف ، وتلك هي الساعة التي لا يتألم فيها برنار أبداً اذ يشعر بأنه يستعيد شبابه القوي من جديد . سيمر اليام عمّا قريب ، فيجب أن يهيء الصافرات ويسمل عيون اليام ، وفي الساعة الحادية عشرة سيعود الى تيريز كي يراها ما تزال تغط في نومها .

« وماذا بعد ؟ وأين أزفيدو ؟ أنت تعلمين ان أمي تنتظر الانباء في (بياريتز) في البريد ؟

ـ وماذا عن قلبك ؟

ـ لا تحدثني عن قلبي ، حسبي أن تحدثني عنه كي أعود فأشعر به من جديد . لا شك في ان ذلك يثبت بأن الموضوع مضجر.. ألأنت تعتقدين ايضاً أن هذا مضجر » ؟

ولم تكن تجيبه قط بالجواب الذي يرجوه :

« لا يمكننا ان نعرف شيئاً ، أنت وحدك تعرف ما الذي تشعر به . وليس في موت والدك بالذبحة الصدرية سبب كاف . . . وفي عمرك بخاصة . . لا جرم أن القلب هو العضو الضعيف في اسرة ديكيرو . ما اعجبك يا برنار في خوفك هذا من الموت ! ألا تشعر مثلي يوماً شعوراً عميقاً بعدم فائدتك ؟ ألا تشعر بذلك ؟ ألا ترى ان حياة البشر من أمثالنا تشبه الموت شبهاً رهيباً ؟

كان يرفع كتفيه : فقد كانت تسحقه بمفارقاتها . ان خفة الروح لا تحتاج الى كثير من المهارة ؛ اذ يكفي ان يسير المرء بعكس ما هو معقول . ولكنه كان يضيف بأنها مخطئة ان تنفق كل ذكائها معه ، فالأفضل ان تدخر نفسها لمقابلة ابن ازفيدو .

« هل تعلمين بأنه سيغادر فيليجا حوالي منتصف تشرين الاول » ؟

. . .

في (فيّاندرو) المحطة التي تسبق سان كليو ، فكرت تيريز ، قالت : « كيف يمكنني ان اقنع برنار بأنني لم احبّ هذا الفتى ؟ سيظن حتماً انني همت به حتى العبادة . وسيتخيل ، كسائر الكائنات التي تجهل الحب جهلاً عميقاً ، بأن جريمة كهذه التي اتهمت بها لا يمكن ان تصدر إلا عن باعث غرامي » . كان على برنار ان يعرف انها ، في تلك الفترة ، كانت بعيدة كل البعد عن ان تكرهه رغم انه كان يبدو لها مزعجاً في بعض الاحيان ، إلا انها لم تكن تتخيل ان رجلاً آخر يمكنه أن يقدم لها أية مساعدة . كما ان برنار ، لم يكن ، الى ذلك ، سيئاً جداً . كانت تيريز تكره الصورة التي تراهـا في الروايات لأبطال غير عاديين ممن لا يمكن العثور عليهم في الحياة .

كانت تعتقد ان أباها هو الرجل المتفوق الوحيد الذي عرفته ، وكانت تجهد في ان تخلع بعض العظمة على هذا الراديكالي العنيد الحذر الذي يحارب في عدة جبهات : فهو يمارس اعمالاً كثيرة : صاحب معامل (فعدا عن المنشرة في ب . ، كان يدير بنفسه معمله لصنع الصمغ ومعمل اقربائه في مصنع بسان كلير) — وسياسي بوجه خاص ، سبّب بتصرفاته الخاصة كثيراً من الاذى ، ولكنه كان مسموع الكلمة في المديرية ، واي احتقار كان يشعر به نحو النساء ! بما فيهن تيريز يوم كان كل انسان يثني على ذكائها . أما منذ المأساة فقد كانت النساء بالنسبة اليه « مهستيرات جميعاً ان لم يكنّ بلهاوات ! » كما كان يكرر ذلك للمحامي . وكان هذا المناوىء لرجال الدين يبدو حيياً ، ومع انه يدمدم احياناً بلحن لبيرنجه[1] فلم يكن يتحمل ان يطرق احد امامه بعض المواضيع الخاصة ، فيحمر وجهه كالمراهق . وكان برنار يروي نقلاً عن السيد لاتراف ان لاروك قد تزوج وهو بكر : « ومنذ ان ترمل ، كثيراً ما حدثني هؤلاء السادة بأنهم لم

---

(١) موسيقي فرنسي اشتهر باغانيه الشعبية التي تتغنى باللذة (١٧٨٠ — ١٨٥٧) .

يعرفوا ان له خليلة . ان اباك لرجل فذ ! » نعم ، لقد كان رجلاً فذاً .
واذا كانت تكون لنفسها صورة مجملة عنه من بعيـــد ، فهي تقدر دناءته
حين يأتي الى هنـا . ذلك بأنه لم يكن يجب ان يقابل امرة لاتراف ،
فقلما كان يأتي الى سان كلير ، امـــا الى ارجـلوز فقد كان يجيء في
اغلب الاحيان ، وعلى الرغم من ان الحديث عن السياسة كان محظراً
امامهم فما ان وضع الثريد حتى تقوم الخصومات الحمقاء التي لا تلبث ان
تنتهي نهاية سيئة . وكانت تيريز تخجل ان تشترك في هـــذا الموضوع :
فكانت كبرياؤها ترغمها على الا تفتح فمها الا اذا مست المناقشات المواضيـع
الدينية ، فتسارع آنذاك الى مساعـدة السيد لاروك . وكان كل من
الحاضرين يصرخ حتى لتدرك العمة كلارا نفسها نتفاً من الجـــل ، فتلقي
بنفسها في المناقشة ، مطلقة العنان ، بصوت الصماء الرهيب ، لهواهـــا ،
هوى راديكالية عجوز « من يعرف ماذا يجري في الاديرة ؟ » ، وهي في
الواقع ، كما كانت ترى تيريز اكثر ايمـاناً من اي فرد في اسرة لاتراف
الا انها كانت في حرب مكشوفة مع الكائن اللامتناهي الذي سمح بأن
تكون صماء وقبيحة وان تموت دون ان يتاح لها يوماً ان يحبهـــا او
يمتلكها انسان . ومنذ اليوم الذي تركت فيه السيدة دولاتراف المائدة ،
راحوا يتجنبون باتفاق تام الحديث في الميتافيزيقا . بـل ان السياسة كانت
وحدها كافية كي تغيظ هؤلاء الاشخاص الذين كانوا على اتفاق تام ، يمينيين
كانوا ام يساريين ، حول هـــذا المبدأ الاساسي : ان الملكية هي الخير
الوحيد في هذا العالم ولا شيء يعدل الحياة كامتلاك الارض ، ولكن هل
يجوز لنا ان نحصل على حصة الاسد أم لا ، واذا جاز ذلـك فإلى اي
حد . ان تيريز التي كان « حب التملك يجري في دمها » كانت تود لو
يطرح الموضوع بمثل هذه الوقاحة الا انها كانت تكره المظاهر الخداعة التي
تغلف بهـا كل من اسرة لاروك ولاتراف هواهما المشترك . وحين كان

ابوها يدعو الى واخلاص دائم للديموقراطية» ، كانت تقاطعه فتقول : « لا حاجة الى ذلك فنحن وحدنا » وكانت تقول ان مـا هو سام في السياسة ليبعث فيها الغثيان ، ولم تكن تدرك مأساة صراع الطبقات في بلدة افقر الناس فيها مالك الارض ، يطمح الى ان يوسع من ملكه ، حيث يخلق حب الارض والصيد والطعام والشراب المشترك بين الجميع ، من بورجوازيين وفلاحين ، نوعاً من الاخوة الضيقة . الا ان برنار كان يمتـاز ، بالاضافة الى ذلك ، بأنه مثقف . وكانوا يقولون عنه بانه انسان خرج من جحره ، وان تيريز ذاتها كانت تضبط نفسها من انه كان رجـلاً يمكن ان يتحدث اليه الانسان . وهو « بايجاز ارفع بكثير من محيطه ... » هكذا كانت تصفه الى ان التقت بجان ازفيدو .

• • •

كان ذلك في الفترة التي تمتد فيها رطوبة الليل طوال الصباح ، ومـا ان تنتهي فترة الظهيرة حتى يعلن قليل من الضباب عن حلول الغسق من بعيد ، مهما كانت الشمس حادة . كانت طلائع اليمام تمر ، ولم يكن برنار يرجع قط قبل المساء . ومع ذلـــك ففي هذا اليوم بعد ان قضى ليلة مضنية سافر الى بوردو بلا توقف كي يعرض نفسه على الطبيب .

فكرت تيريز : « لم اكن ارغب في اي شيء آنذاك ، فمضيت اسير ساعة من الزمن على الطريق ، لان على المرأة الحامل أن تسير قليـلاً . كنت اتجنب الغابات اذ يجب ان يتوقف المرء هناك في كل لحظـة بسبب اقفاص اليمام ، ويصفر وينتظر ريثما يسمح له الصياد ، بصرخة منه ، ان يمر ، كما ان صفيراً طويلاً يجيب عن صفير المار احياناً ؛ ذلك بأن طائراً قد سقط بين اشجار السنديان ويجب ان يستمر المرء في مكانه . ثم عدت واسترخيت امـام مدفأة الصالة او المطبخ ، وكانت العمة كلارا تقدم لي كل ما احتاج اليه . ولم اكن انظر اليها اكثر مما ينظر الله الى خادمته ،

تلك العانس التي تحن دائماً بحكايات المطبخ والمزرعة ، كانت تتكلم ، كانت تتكلم لكيلا تحاول ان تسمع : وتدور احاديثها في معظم الاحيان حول قصص كئيبة تتعلق بالزراع الذين تعنى بهم وتسهر عليهم باخلاص بيّن : من شيوخ قضي عليهم ان يموتوا جوعاً واناس محكوم عليهم بان يعملوا حتى موتهم ، وعاجزين مهملين ، ونساء مستعبدات لاعمال مضنية . كانت العمة كلارا تذكر بشيء من السرور وبلهجة عامية بريئة كلماتهم الاكثر قسوة ، والحق انها لم تكن تحب احداً غيري انا التي لم اكن انظر اليها اذ تركع على ركبتيها فتنزع لي حذائي وتخلع جوربي وتدفىء رجلي بين يديها الهرمتين .

كان (باليون) يأتي على نحو منتظم حين يكون عليه ان يسافر صباح اليوم التالي الى سان كاير ، وكانت العمة كلارا تنظم له قائمة بالاعمال المطلوبة ، وتجمع الوصفات الطبّية لمرضى ارجلوز : « اذهب قبل كل شيء الى الصيدلية فسيكون لدى داركاي ملء الوقت من النهار لتهيئة الادوية ... »

إن اول لقاء لي مع جان ... يجب ان أتذكر كل القرائن : كنت قد اخترت ان اذهب الى كوخ الحمام المهجور ذاك حيث كنت اتناول طعام العصر بالقرب من آن وحيث علمت أنها أصبحت تحب ، منذ ذلك الحين ، ان تلتقي بأزفيدو هذا . كلا ، لم يكن في خاطري ان أقوم بحج الى ذلك المكان . غير ان الصنوبرات كانت قد نمت من هذه الجهة نمواً كبيراً حتى لا يستطيع المرء ان يبحث عن اليمام . ولم أكن لأخاطر بإزعاج الصيادين . ان كوخ الحمام هذا لم يعد ينفع احداً ، فالغابة من حوله كانت تخفي الأفق ، ورؤوس الاشجار المتباعدة لم تعد تؤمن تلك الطرقات الواسعة في السماء حيث يتـاح للمراقب أن يرى الى قفزات الطيور . تذكري : شمس تشرين الاول التي مـا تزال تلفح ، كنت

اشعر بالاعياء وأنا اسير فوق هذه الطريق الرملية ، وكان الذباب يزعجني . ما كان اثقل بطني ! وكنت آمل ان أجلس على المقعد الخَرِب في كوخ الحمام ، ولما فتحت الباب خرج منه شاب ، عاري الرأس ، فتعرفت فيه للنظرة الاولى جان ازفيدو ، وخيل اليّ أول الأمر انني قد افسدت عليه موعداً لشدة الاضطراب الذي ارتسم على وجهه ، الا انني عبثاً حاولت ان اهرب ؛ وكان من الغريب انه لم يفكر الا في ابقائي : «كلا ، ادخلي يا سيدة ، اقسم لك انك لا تزعجينني أبداً» .

دُهشتُ اذ وجدتُ ان الكوخ الذي دخلت اليه بناء على الحاحه كان خالياً . ترى هل هربت الراعية من منفذ آخر ؟ ولكنني لم اسمع صوت انكسار أي غصن . لقد تعرفني هو أيضاً وورد اسم آن دولاتراف على شفتيه . كنت جالسة ، وكان هو واقفاً كما رأيته في الصورة . فنظرت من خلال قميصه الحريري الى المكان الذي ثقبته بالدبوس : كان ذلك مجرد فضول خال من كل هوى . هل كان جميلاً ؟ جبهة ملساء — وعينان مخمليتان كعيون اسرته - وخدان كبيران جداً — ثم كان فيه ما ينفرني لدى الشبان في مثل عمره : البثور التي تفصح عن حركة الدم ، كل ما يتقيح ، ولا سيما تينك الراحتين المبللتين اللتين كان يمسحهما بمنديله قبل ان يصافحك . ان نظرته الجميلة كانت متقدة . لقد أحببت هذا الفم الكبير المفتوح بعض الشيء على اسنان حادة : شدق كلب فتي مغرور . وانا ، كيف كنت ؟ اذكر انني كنت أليفة جداً . كنت قد نظرت اليه من عل واتهمته بنبرة متعالية «بأنه أثار البلبال والانقسام في اسرة محترمة .» آه ! تذكري دهشته غير المفتعلة ، وضجة ضحكته الفتية : «اذن فأنت تعتقدين بأنني اسعى وراء هذا الشرف ؟» وقست بنظرة سريعة ، وأنا في غاية الدهشة ، هذه الهوة التي تقوم بين هوى آن ولامبالاة هذا الشاب . كان يدافع عن نفسه بحماسة : لا شك ، فكيف يستطيع المرء الا يخضع

لسحر فتاة عذبة ؟ ان الحب ليس أمراً محرماً ، ولقد بدا له الحب ، بالتدقيق ، أمراً لا خطر منه لان موضوع زواجها لا يمكن ان يطرح ابداً . ولا شك في انه تظاهر بمشاركة آن في نواياها . وتابع كلامه بجدة، اذ قاطعته وكأنني معلقة في مكان عال ، فقال ان بامكان آن أن تشهد بأنه لم يتجاوز الحد في علاقته بها ، وانه فيا عدا ذلك لا يشك ابداً في ان الآنسة دولاتراف مدينة له بساعات الهوى الحقيقية الوحيدة التي أتيح لها ان تعرفها خلال حياتها الكئيبة : « أتقولين لي يا سيدتي انها تتألم ولكن ثقي بان ما من شيء تنتظره في حياتها أفضل من هذا الألم ؟ انني اعرفك من خلال شهرتك ، واعرف ان في استطاعة المرء ان يقول لك هذه الاشياء ، وأنك لا تشبهين الناس هنا . لقد زودت آن ، قبل ان تقوم برحلتها الفائقة في منزل قديم بسان كلير ، بثروة من المشاعر والاحلام – بما يمكن ان ينقذها من الملال ، أو من الخبال على كل حال» . لست اذكر ان كنت قد اغتظت من هذا الافراط في الادعاء والتبجح ، أو انني احسست به أيضاً . والحق ان طريقته في الحديث كانت سريعة جداً حتى انني لم اتابعه أول الامر ، ولكن سرعان ما اعتاد ذهني على هذه السرعة في الكلام « هل تظنينني جديراً بأن اتمنى مثل هذا الزواج ، والقي مرساتي في هذا الرمل ؛ او أن اعيل فتاة صغيرة في باريس ؟ سأحتفظ لآن بصورة محبوبة لا شك ، وفي هذه اللحظة التي فاجأتني فيها كنت افكر بها ... ولكن كيف يستطيع المرء أن يستقر؟ ان على كل دقيقة ان تحمل معها افراحها – افراحاً تختلف عن كل الافراح التي سبقتها» .

ان هذا النهم ، نهم حيوان شاب ، وهذا الذكاء الكامن في كائن واحد، قد بدا لي غريباً جداً حتى انني اصغيت اليه دون ان اقاطعه . اجل ، لا شك في انني كنت ذاهلة : وبأشياء يسيرة يا الهي ! ولكنني كنت

ذاهلة حقاً . إنني لأذكر وطء الاقدام هذا ، وتلك الاجراس وصرخات الرعاة المتوحشة التي كانت تعلن عن قدوم قطيع من بعيد . قلت للفتى : ربما بدا مستغرباً ان نكون معاً في هذا الكوخ ، وددت لو انه اجاب بأن من الافضل الا نثير أية ضجة ريثما يمر القطيع ، وكنت ، وأنا بجانبه ، سأتمتع بهذا الصمت ، وبتلك المشاركة . (كنت أنا أيضاً قد غدوت ملحاحة في الطلب امنى ان تحمل لي كل ثانية ما اعيش به) الا ان جان ازفيدو فتح باب الكوخ من غير ان يحتج واختفى وهو يقوم بكثير من حركات المجاملة . ولم يتبعني الى ارجلوز حتى تيقن من انني لا اجد أية عقبة امامي . كم بدا لي طريق العودة قصيراً رغم ان زميلي وجد متسعاً من الوقت كي يطرق ألف موضوع ! كان يعيد الشباب ، على نحو غريب ، الى اشياء كنت اعتقد انني اعرفها ، فعن موضوع الديانة مثلاً ، بينما كنت اعيد ما اعتدت ان اقوله في مجالس الاسرة ، قاطعني قال : «نعم ، لا شك ... الا ان هذا الموضوع اكثر تعقيداً من ذلك ... » والواقع انه كان يدلي اثناء النقاش بامور بديهية كانت تبدو لي رائعة ... هل كانت رائعة فعلاً ؟ اعتقد اليوم انني اتقيأ هذه الافكار الخلابة : قال لي بأنه اعتقد فترة طويلة ان ما من شيء له اهمية غير البحث عن الرب واتباعه : « وان يفر الانسان ، ويمتطي متن البحر ويهرب ، كما يهرب من الموت ، من اولئك الذين يقنعون انفسهم بأنهم وجدوه ، فيتجمدون ويبنون لانفسهم ملاجىء كي يناموا فيها ، ما اشد ما احتقرت اولئك الناس» ...

سألني هل قرأت «حياة الاب فوكو» لرنيه بازان ، واذ تظاهرت بالضحك ، أكد لي ان هذا الكتاب قد أقض مضجعه ، واضاف يقول : «أن يعيش الانسان حياة خطرة بالمعنى العميق لعل ذلك ليس في البحث عن الله بقدر ما هو في العثور عليه والبقاء بعد ذلك في فلكه » ، ووصف

لي «مغامرة الصوفيين الكبرى» . وتشكى من ان مزاجه الذي لا يسمح له بمعاناتها «غير انه مهما اوغل في ذكرياته ، فانه لا يتذكر انه كان تقياً في يوم من الايام» . ألا كم غيرت هذه الصرخة المتناهية ، وهذه السهولة في الكشف عن النفس ، من الحذر الريفي والصمت الذي يلتزمه الناس عندنا فيما يتعلق بحياتهم الداخلية ! ان الثرثرة في سان كلير لا تمس الا الظواهر : أمـــا القلوب فلا تتعرى قط . وفي الواقع ماذا أعرف عن برنار ؟ أليس فيه اشياء لا نهاية لهـــا غير هذه الصورة الكاريكاتورية التي اكتفي بها اذا ما وجب علي ان اتخيله ؟ كان جان يتكلم ، وظللت أنا صامتة : فلم يكن يرد على شفتي غير الجمل المألوفة في مناقشاتنا في المنزل. وكما ان العربات جميعها هنا «على الطريق» اي انهـــا من الاتساع بحيث تطابق عجلاتهـا الاخاديد التي تحتفرها العربات ، كذلك كانت افكاري كلها حتى هذا اليوم «على طريق» ابي ، واهل زوجي . كان جان ازفيدو يسير عـــاري الرأس ؟ اني لاستعيد رؤية هذا القميص المفتوح على صدر كصدر الاطفال ، وكان عنقه قويــاً جداً . هل تأثرت بجمال جسمه ؟ آه ! كلا يا الهي ! بيد انه اول رجل التقيت به كانت الحيـاة الروحية تهمه اكثر من أي شيء آخر . ان اساتذته واصدقـاءه الباريسيين الذين كان يذكرني دائمـاً بـأحاديثهم وكتبهم ، كل ذلك كان يحول بيني وبين النظر اليه على انه ظـــاهرة غريبة : لقد كان فرداً بين نخبة عديدة من أولئك «الذين يحيون» على حد تعبيره . كان يذكر اسماء ، ولا يدور بخلده قط انني قد اجهلهـا ، وكنت اتظاهر بـــأن هذه الاسماء ليست غريبة عني .

صرخت اذ بدا حقل ارجاوز عند منعطف الطريق « أفي مثل هذه السرعة وصلنا ! » كان ثمة دخـــان عشب محترق يتطاير فوق سطح هذه الارض الفقيرة التي كانت قد اعطت شيلمها ، ومن خلال فرضة في المنحدر

كان قطيع يسيل كحليب متسخ ويبدو كأنه يرمُ الرمل . كان على جان أزفيدو ان يجتاز الحقل كي يبلغ فيليجا . فقلت له : سأرافقك ؛ ان هذه المشاكل كلها لتثير شغفي » . ولكننا لم نجد بعد ذلك شيئاً نقوله . كانت سوق الشيلم المقطوعة تؤلمني من خلال حذائي . وشعرت بأنه يتمنى ان يكون وحده ، كي يتابع ، على مهل لا شك ، فكرة خطرت بباله. ونوهت امامه بأننا لم نتحدث عن آن ، فأكد لي أننا لم نكن احراراً في اختيار موضوع مناقشاتنا أو تأملاتنا . واضاف بتكبر : «والا وجب علينا ان ندعن الطرق التي ابتدعها المتصوفون ... ان الكائنات اشباهنا تتبع التيارات دائماً ، وتخضع للمنحدرات » ... هكذا كان يرد كل شيء الى مطالعاته في ذلك الحين . وضربنا موعداً نحدد فيه خطة التصرف في موضوع آن . كان يتحدث بذهول ثم انحنى ، من غير أن يجيب عن اي سؤال القيته عليه ، وأراني بحركة طفل ، فِطراً قرّبه من انفه وشفتيه .

٧

كان برنار واقفاً على عتبة الدار ينتظر أوبة تيريز ، وما ان لمح ثوبها في العتمة حتى أخذ يصرخ : « لست مصاباً بشيء ، لست مصاباً بشيء ! هل تعتقدين ان شخصاً قوي البنية مثلي يصاب بفقر الدم ؟ ان هذا لأمر لا يصدق ، ومع ذلك فهـــذا هو الواقع : يجب على المرء ألا ينخدع بالظواهر . سأتداوى... سأتناول دواء « فولر »: المركب من الزرنيخ ، المهم ان استعيد شهيتي ... » .

تتذكر تيريز أنها لم تتضايق اول الأمر : فكل مـا يأتيها من برنار كان يؤثر فيهـا أقل من العادة (كما لو ان الضربة كانت تأتي من مكان أبعد) لم تكن تصغي الى ما يقول ، فجسدها وروحها كانا متجهين نحو عالم آخر حيث تعيش كائنات نهمة لا تتمنى الا ان تعرف وتفهم « وتحقق وجودها » ، على حد تعبير جان ازفيدو في كلمة كررها بنبرة من الرضى العميق . وإذ تحدثت اخيراً وهما على المائدة عن لقائهـا بأزفيدو ، صرخ برنار : « لماذا لم تحدثيني عن ذلك ؟ يا لك من مخلوق عجيب ! حسن ؟ ماذا قررتما ؟ » .

وعرضت عليه تواً المخطط الذي يجب اتبـاعه : لقد قبل جان ازفيدو أن يكتب رسالة الى آن يبعد عنهـا بمنتهى اللطف كل امل لهـــا فيه .

وقهقه برنار حين أصرت تيريز على ان الشاب لا يرغب في الزواج من آن دولاتراف ! « هكذا إذن ؟ هل جننت ؟ إنه يعرف بكل يسر إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في هذه القضية ، ان هؤلاء الناس لا يخاطرون حين يكونون على ثقة من الخسارة . انك ما تزالين ساذجة يا صغيرتي ...

لم يشأ برنار ان يوقد المصباح بسبب البعوض وهكذا فانه لم ير نظرة تيريز . « لقد استعاد شهيته » كما قال . لقد أعـــاد اليه طبيب بوردو الحياة بسرعة .

هل تكرر لقائي بجان ازفيدو ؟ لقد غادر ارجلوز حوالي نهاية تشرين الاول ... لعلنا قمنا بخمس نزهات أو ست ، ولا استبعد منها إلا النزهة التي عمدنا فيها الى كتابة رسالة الى آن . كان الفتى الساذج يتوقف عند تعابير يظنها مهدئة ، ولكنني كنت اشعر ، دون ان اقول له ذلك ، بأن فيها الهول كل الهول . غير انني أمزج آخر جولاتنا كلهـا بذكرى واحدة . كان جان ازفيدو يصف لي باريس ورفقاءه ، وكنت اتخيل مملكة القانون السائد فيها « ان يحقق الانسان ذاته » . « أما هنا فأنتم محكوم عليكم بالنفاق حتى الموت » . هل كان يتعمد ذكر هذه الاقوال ؟ وبماذا عسى أن يتهمني ؟ كان يستحيل عليّ ، وانا أصغي اليه ، ان احتمل هذا الجو الخانق . كان يقول لي : « انظري الى هذا السطح المستوي الكبير من الجليد الذي يسيطر على كل النفوس في هذا المكان ، وقد يكتشف احد الصدوع احياناً المـــاء الاسود : ان شخصاً ما قد صارع واختفى ، وعادت قشرة الارض الى سابق عهدهـــا ... ذلك بأن كل انسان ، هنـا كما في اي مكان آخر ، يولد مع قانونه الخاص به ، وأن كل مصير ، هنا كما في اي مكان آخر ، هو مصير خاص ، ومع ذلك فينبغي الاذعان لهذا المصير القاتم المشترك ، وقد يقاوم بعض النـــاس :

ومن هنا تظهر هذه المآسي التي تصمت عنها الاسر. كما يقول الناس ههنا : « يجب ان نلوذ بالصمت ... » .

صرخت : « آه ! نعم ، فأنا أبحث احياناً عن هذا العم او ذاك السلف ممن اختفت صورهم من كل الاضمامات ، ولم احصل قط على اجابة ، ما عدا هذا الاعتراف الذي سمعته مرة : « لقد اختفى... لقد غيبوه ».

هل كان جان ازفيدو يخشى عليّ مثل هذا المصير ؟ لقد أكد لي انه لم يفكر بأن يحادث آن بمثل هذه الامور ، لأنها كانت ، رغم عاطفتها ، نفساً بسيطة شبه جامحة ، ولسوف تستعبد هذه النفس عمّا قريب « أما انت ! فأنا اشعر ان في اقوالك كلها جوعاً وظمأً الى الصدق » . هل ينبغي أن انقل هذه الاحاديث بحذافيرها الى برنار ؟ ان من الحمق ان أؤمل ان يفهم منها شيئاً ! فليعرف على كل حال ، انني لم استسلم دون مقاومة . فأنا اذكر انني جابهت الفتى الذي كان يزينه في نظري اقواله الصائبة ، بأحقر انواع الرضى بالسقوط والخطيئة ، بل انني التجأت كذلك الى ما تذكرته من المطالعات الاخلاقية التي كنا نقرؤها في المعهد . كررت القول : « ان نحقق وجودنا ، ولكننا لا نوجد الا بمقدار ما نخلق انفسنا » . (من العبث شرح هذا . ولكن ربما وجب ان أشرحه لبرنار) كان ازفيدو ينكر وجود انحطاط اسوأ من أن يتخلى الانسان عن وجوده . وكان يزعم انه لم يوجد بطل او قديس لم يقم أكثر من مرة بالتجول في اعماق ذاته . وبلغ اول الامر حدوده كافة . وكان يكرر : « يجب على المرء ان يتجاوز ذاته كي يجد الرب » . ويقول ايضاً : « ان اذعان الانسان يرغم افضل الناس بيننا على ان يجابهوا انفسهم ، علناً وفي معركة لا خداع فيها ، ولهذا السبب يحدث احياناً ان يرتد هؤلاء المتحررون الى الدين في اضيق حدوده » .

لن أحدث برنار عن غنى هذه الاخلاق – بل سأمضي معه الى القول

بأن ذلك كله ليس الا سفسطة هزيلة . ولكن فليفهم ، فليحاول ان يفهم ، الى اي مدى يمكن أن تتأثر امرأة مثلي بذلك ، وما كنت اشعر به عند المساء ، في قاعة الطعام بأرجلوز : كان برنار في آخر المطبخ القريب ينزع حذاءه ، ويتحدث باللهجة المحلية عن غنائم ذلك اليوم ؛ كانت الحمائم المأسورة تنتفض فينتفخ الكيس الملقى على الطاولة ؛ كان برنار يأكل ببطء ، وهو فرح كل الفرح باستعادته شهيته - ويحسب بوجد نقاط « الفولر » ويكرر : « هذه هي الصحة » . كانت حرارة شديدة تتوقد ، ولما حان موعد تناول الفواكه لم يكن عليه الا ان يدير مقعده كي يمد للنار رجليه المنتعلتين خفين من الجوخ . كانت عيناه تغلقان على كتاب (الجيروندية الصغيرة) وكان يشخر في بعض المرات ، ولكنني لم اكن اسمع صوت تنفسه في اغلب الاحيان . كانت (باليونت) ما تزال تجرر نعليها في المطبخ ، ثم احضرت الشموع ، وساد الصمت : صمت ارجلوز ! ان الناس الذين لا يعرفون هذه الارض المقفرة التائهة لا يمكنهم أن يعرفوا ما الصمت : انه ليحاصر المنازل ، كأنه يجمد في هذه الكتلة الكثيفة من الغابة حيث لا وجود لشيء حي ، غير عويل بومة قد ينطلق احياناً ؛ (حتى ليخيل الينا اننا نسمع ، في الليل ، التنهدات التي نكتمها) .

لقد عرفت هذا الصمت بعد رحيل أزفيدو بخاصة ، كان وجوده يجعل الظلمات الخارجية غير مؤذية ، ونومه القريب يعمر الدنيا والليل ما دمت أعرف انني سأراه في اليوم التالي . ومنذ ان غادر ارجلوز ، بعد ذاك اللقاء الاخير الذي ضرب لي فيه موعداً للالتقاء به بعد سنة ، وهو على أمل ، كما قال لي ، ان أكون قد وجدت سبيلاً الى الخلاص (انني اجهل اليوم هل صدر كلامه ذاك عن طيش او عن فكرة مسبقة . انني أميل الى الاعتقاد بأن هذا الباريسي لم يكن يستطيع تحمل الصمت ،

صمت ارجـاوز ، وانه كان يعبد في شخصي ، المستمعة الوحيـدة اليه)
ومنذ ان فارقته خيل اليّ انني ادخل نفقـاً لا نهـاية له ، وانني لأتساءل
احيـاناً هل سيتاح لي ان ابلغ الهواء النقي قبل ان اختنق ، ولم يحدث
شيء حتى موعد ولادتي في كانون الثاني ... » .

• • •

تتردد تيريز هنـا ، وتسعى لأن تحوّل تفكيرها عما حدث في المنزل
بأرجلوز ، في اليوم التـالي لرحيل جان ، وتفكر في نفسهـا : « كلا ،
كلا ، فلا علاقة لهذا بما يجب أن اشرحه لبرنار بعـد قليل ، فليس لي
وقت اضيعه في امور لا تؤدي الى شيء » . الا ان الفكر ليجمح ،
ومن المستحيل أن نمنعه من الجري حيث يشـاء : فتيريز لن تلغي من
ذاكرتها ذاك المساء من شهر تشرين الاول . كان برنار يخلع ثيـابه في
الطابق الاول ، وتيريز تنتظر أن تحترق الحطبة بأكملهـا كي تلحق به —
وهي سعيدة بأن تبقى وحدهـا لحظة : ماذا كان يفعل جان ازفيدو في
هذه الساعة ؟ ربما كان يشرب كأساً في ذلك المقهى الصغير الذي حدثها
عنه ، وربما كان يتجول في السيارة (فقد كان الليل ساجياً جداً) أو
مع أحد اصدقائه في غابة بولونيا المقفرة . ربمـا كان يعمل على طاولته
بينما باريس تهـدر من بعيـد ؛ الصمت ، كان هو الذي يخلق الصمت ،
ويجتذبه فوق صخب العالم ، لم يكن يفرض عليه من الخارج ، كذاك
الصمت الذي يخنق تيريز . ان هذا الصمت لصنيعته ، ولم يكن يمتد أبعد
من ضوء المصباح ومن الرفوف المحملة بالكتب ... هكذا كانت تفكر
تيريز ؛ واذا بالكلب ينبح ثم يتنهد ، ويهدئه صوت معروف ، صوت
منهك في الرواق : فتحت آن دولاتراف الباب ، كانت قد وصلت من
سان كلير مشياً على الاقدام ، في الليل — وحذاءاهـا مليئان بالوحل .

كانت عيناها تلتمعان في وجهها الصغير الذي ادركه الهرم . القت قبعتها على المقعد وسألت : « أين هو ؟ » .

كانت تيريز وجـان قد ظنا ان هذا الموضوع قد طوي بعد ان كتبا الرسالة ووضعاها في البريد ــ وهما أبعد ما يكونان عن التفكير بأن آن قد لا تتخلى عن هذه القضية ــ ولكن هيهـات ان يستطيـع الانسان ان يذعن لمبررات وبراهين اذا كان الموضوع يتعلق بحيـاته نفسهـا !! لقد استطاعت ان تغافل رقابة امهـا وتستقل القطار ، وارشدها انسيال السماء المنير بين الصنوبرات الى الطريق : «كان كل شيء بالنسبة اليها ان تراه ، واذا ما رأته فستستعيده ، يجب أن تراه». كانت تتعثر في مشيتها وتتلوى قدماها في حفر الطريق لشدة مـا كانت مسرعة لبلوغ ارجلوز . وها هي ذي تيريز تقول لهـا الآن ان جـان قد ذهب وانه في باريس . واشارت آن برأسها أن كلا ، انها لا تعتقد بذلك ، وهي بحاجة الى أن لا تعتقد كي لا تنهار نصباً ويأساً .

«انك تكذبين كما كذبت دائماً» .

واذ احتجت تيريز ، أضافت آن تقول :

«آه ! انت أيضـــاً تحملين عقلية الاسرة ! لقد كنت تقفين موقف المحرر ... ولكن منذ ان تزوجت غدوت ، دفعـة واحدة ، امرأة من الاسرة ... اجل ، اجل ، هذا واضح : لقد خيل اليك انك احسنت التصرف ، فقد خنتني كي تنقذيني أليس كذلك ؟ انني أعفيك من الشروح التي ستقدمينها لي .

ولما فتحت الباب سألتها تيريز الى أين تذهب .

« أنا ذاهبة اليه ، في فيليجا .

ــ اكرر لك ما قلته من انه ليس هناك منذ يومين .

ــ لست اصدقك .

وخرجت . عند ذاك اوقدت تيريز المصباح المعلق في الرواق ولحقت بها :

«ستتيهين يا صغيرتي آن : فأنت تسلكين طريق (بيوردج) . ان طريق فيليجا من هنا» .

اجتازتا الضباب الذي تفيض به البرية ، واستيقظت الكلاب النائمة . هاهي ذي اشجار السنديان في فيليجا ، لم يكن المنزل نائماً بل ميتاً . حامت آن حول هذا الضريح الفارغ ، وقرعت الباب بقبضتيها . اما تيريز فقد وضعت المصباح فوق العشب ووقفت لا تبدي حراكا . ورأت شبح صديقتها الخفيف يتعلق بكل نافذة في الطابق السفلي ، لا شك في ان آن كانت تردد اسماً ولكن دون أن ترفع صوتها ، اذ كانت على علم بأن لا فائدة من ذلك . وغيبها المنزل خلال لحظات ، ثم ظهرت مرة اخرى ، ووصلت الى الباب من جديد ، وانسابت على العتبة وذراعاها معقودتان حول ركبتيها حيث تختفي وجهها . انهضتها تيريز وقادتها . وراحت آن تردد وهي تتعثر في خطوها : «سأذهب صباح غد الى باريس. ان باريس ليست كبيرة جداً ؛ وسأجده في باريس» ... الا انها كانت تقول ذلك بلهجة طفل استنفد مقاومته وأصبح على وشك ان يستسلم .

كان برنار الذي أيقظته ضجة اصواتها ينتظرهما في الصالة وهو لابس مبذله . وتخطىء تيريز بأن تطرد ذكرى المشهد الذي انفجر بين الاخ واخته . ان هذا الرجل القادر على ان يمسك بقبضتين قاسيتين فتاة صغيرة منهكة القوى ، ويقودها الى غرفة في الطابق الثاني ، لهو زوجك يا تيريز : انه برنار نفسه الذي سيحاكمك بعد ساعتين . ان روح الاسرة توحي اليه ، وتنقذه من كل تردد . وهو يعرف دائماً ، في سائر المناسبات، ما ينبغي ان يفعله لصالح الاسرة . ستعدين دفاعاً طويلاً عنك ، ونفسك عامرة بالغم . غير ان الرجال الذين لا يدينون بمبدأ هم وحدهم الذين

يمكنهم أن يذعنوا لحقيقة غريبة . ان برنار سيسخر من براهينك :
«انني أعرف ما ينبغي ان أفعل» . انه يعرف دائماً ما ينبغي ان يفعل .
واذا تردد احياناً فانه يقول : «لقد تحدثنا عن ذلك في الامرة ، ورأينا
أن ...» كيف يمكنك أن تشكي في انه لم يهيء حكمه ؟ لقد حُدد
مصيرك الى الابد : ومن الخير كل الخير لك أن تنامي .

٨

بعد أن اعادت امرة لاتراف آن المغلوبة على امرهـا الى سان كلير ، لم تغـادر تيريز ارجلوز قط حتى دنو موعد خلاصها . لقد عرفت هنـاك الصمت حتى المعرفة خلال ليـالي تشرين الثـاني المفرطة في الطول . وان الرسالة التي ارسلتها الى جـان ازفيدو بقيت من غير جواب . لا شك في انه كان يرى ان هذه المرأة الريفية لا تستحق عناء المراسلة . ثم ان كون المرأة حاملًا أمر لا يخلف في النفس ذكرى جميلة أبداً . لعل هذا الاحمق الذي احتجزته في باريس مواقف وعلاقات سيئة كان ينظر الى تيريز نظرته الى امرأة تافهة ، ولكن مـــاذا عسى ان يفهم من هذه البساطة الخادعة وتلك النظرة الحادة ، والحركات التي لا يبدو عليها التردد قط ؟ الحق انه كان يعتقد أنها ، كالصغيرة آن ، جديرة بأن تصدق كل ما يقوله لها ، وأن تترك كل شيء وتتبعه . كان جان ازفيدو يحترس من النساء اللواتي يرمين اسلحتهن بسرعة كي يتـاح للمهاجم ان يرفع الحصـار . ولم يكن يخشى شيئاً خشيته من الظفر ، ومن ثمار الظفر . ومع ذلك فقد جهدت تيريز ان تعيش في عالم هذا الفتى ، الا ان الكتب التي كان يعجب بهـا والتي طلبتها من بوردو ، بدت لهـا غير مفهومة ، ياللوقت المضـاع ! لم

يكن يُطلب اليها ان تهيء اقمطة المولود ، كانت السيدة دولاتراف تردد قولها : «ليس هذا من عملها» . إن كثيراً من النساء يمتن في الريف اثناء الولادة . وكانت تيريز تبكي العمة كلارا اذ تؤكد لهـــا انها ستموت كما ماتت امها ، وانهـا واثقة من انهـا لن تنجو من هذا المصير . ولم تكن تتوانى عن أن تضيف : « بان لا فرق عندها في أن تموت او تحيا » . يا للأكذوبة ! فهي ما عرفت قط مثل هذه الرغبة الحارة في ان تظل على قيد الحياة ؛ كما ان برنار لم يظهر نحوها قط ما يظهره الآن من الرعاية : «انه لا يهتم بي ، بل بما احمله بين احشائي ، وكان يكرر ، من دون طائل ، بنبرته المخيفة : «كلي من البطاطا ... لا تأكلي السمك ... لقد مشيت كثيراً ...» ولم يكن ذلك يعني الا بمقدار ما يعني مرضعة غريبة يوبخها سادتها لنوعية حليبها . كان آل لاتراف يجلّون فيّ الاناء المقدس ، الذي يتلقى ذريتهم ؛ ولا شك في انه كان يمكن ان يضحوا بي في سبيل هذا الجنين . ورحت اشعر شعوراً خاصاً بوجودي الفردي . فلم اكن ، في نظر الاسرة ، الا غصناً في شجرة والثمرة المعلقة باحشائي ، لها وحدها القيمة .

. . .

كان عليّ أن اعيش حتى نهاية كانون الاول في هذه الظلمات ، وكأن أشجار الصنوبر التي لا حصر لهـــا لم تكن كافية ، فقد ضاعفت الامطار المستمرة ملايين قضبانها المتحركة حول المنزل القاتم. وإما اوشك أن يصبح الطريق الوحيد الذي يؤدي الى سان كلير صعب الاجتياز ، كنت اعـاد الى الضيعـة ، الى منزل فيهـا أقل عتمة من المنزل في ارجلوز . وكانت اشجار الدلب الهرمة مـا تزال تغالب اوراقها في الريح المـاطرة . لم تشأ العمة كلارا ان تظل قرب فراشي ، وهي التي لا تستطيـع أن تعيش في مكان غير ارجلوز ، الا انها كانت تقطع المسافة في اغلب الاحيان ، مهما

كانت حالة الطقس ، في عربتها الصغيرة «على الطريق» ، وكانت تحمل اليّ تلك الحلوى التي احببتها كثيراً وانا فتاة صغيرة ، وكانت تظن انني ما زلت احبها ، تلك الكتل الرمادية المصنوعة من الشيلم والعسل . لم اكن أرى آن الا اثناء تناول طعام الغداء ولم تعد تحدثني قط ، فقد فقدت فجأة نضارتها اذ استسلمت مغلوبة على امرها كما يبدو . كان شعرها المشدود يكشف عن اذنين قبيحتين شاحبتين ولم يكن احد يذكر اسم ابن ديغيليم ، الا أن السيدة دولاتراف كانت تؤكد بأن آن اذا كانت لم تقل نعم حتى الآن فهي لم تقل لا أيضاً . آه ! كان جان قد عرفها حق المعرفة : فلم تكن تحتاج الى زمن طويل كي يضعوا الحبل في عنقها ويدفعوا بها الى المسير . كانت صحة برتار قد ساءت قليلاً لأنه عاد الى تناول المقبلات . أية كلمات كان هؤلاء الاشخاص يتبادلون حولي ؟ كانوا يتكلمون كثيراً عن الكاهن فيما اذكر (كنا نسكن في مواجهة الدير) ، وكانوا يتساءلون مثلاً ، لماذا اجتاز الساحة اربع مرات في اليوم ، وفي كل مرة كان يعود من طريق آخر ... »

كانت تيريز ، لما سمعته من احاديث جان ازفيدو ، تولي مزيداً من العناية لهذا الكاهن الذي ما يزال شاباً والذي لا يتصل بافراد رعيته الذين يجدونه فخوراً بنفسه «ليس هذا بالشخص الذي يلائم هذا المكان» . ولقد لاحظت تيريز ، خلال زياراته النادرة لاسرة لاتراف ، صدغيه الابيضين وجبهته العالية . لم يكن له من صديق ، كيف كان يمضي امسياته ؟ ولماذا اختار هذه الحياة ؟ كانت السيدة دولاتراف تقول : « انه دقيق جداً ، فهو يؤدي فرض الصلاة كل مساء الا انه ليس على شيء من عذوبة الحديث ، ولست اجده انساناً تقياً . أما بالنسبة للمشاريع فانه لا يوليها أية عناية» . وكانت تأسف أنه حذف المدائح من الصلاة ، وكان الاهالي يتشكون من انه لا يرافق اولادهم الى ملعب كرة القدم : «جميل ان

يضع الانسان رأسه دائماً بين كتبه ولكن سرعان ما تضيع الابوشية» .
وراحت تيريز ، كي تستمع اليه ، تتردد الى الكنيسة» . ستقررين ذلك ،
يا ابنتي ، حين يسمح لك وضعك بذلك» . كانت مواعظ الكاهن موضوعية
حين تعالج مشاكل العقيدة او الاخلاق . غير ان تيريز كانت تعنى بتغيير
صوت او بحركة ، وبكلمة قد تبدو احيانـاً اكثر ثقلاً ... آه ربمـا كان
باستطاعته هو ان يساعدها على ترتيب العالم المضطرب في أعماقها . لقد سلك
هو أيضاً ، ذاك المختلف عن الآخرين ، طريقاً مفجماً ، فقد أضاف الى
عزلته الداخلية ، هذه الصحراء التي تخلقهـــا الجبة حول من يرتديها . أية
تعزية يجد في هذه الطقوس اليوميـة ؟ لكم ودت تيريز ان تحضر قداسه
أيام الاسبوع ، اذ يتمتم بكلمات ، وهو منحن فوق قطعـة من الخبز لا
شاهد عليه سوى الصبي الصغير الذي يقوم بخدمة القداس . ولكن مثل
هذا التصرف قد يبدو غريباً بالنسبة للاسرة ولافراد القرية ولو انها فعلت
لصرخوا ان المرأة قد ارتدت الى الايمان .

. . .

ومهما يكن ألم تيريز شديداً في هذه الفترة فانهـا لم تشعر بأنها لم تعد
تستطيـع تحمل الحياة فعلاً الا غداة ولادتها . لم يكن هناك ، ظاهرياً ،
اي شيء . فلم تقم بينها وبين برنار أية مشادة ، بل انهـــا كانت تعامل
اسرة زوجها باحترام لم يكن زوجها نفسه يعـامل الاسرة به ، وكانت
المأساة تكمن هنا ، ذلك بأنه لم يكن ثمة من سبب للانفصال ، وان
مثل هذا الحادث كان امراً يستحيل توقعه ، ولعل مثل هذا الانفصال كان
يحول دون مسيرة الامور في مجراها حتى الموت . ان سوء التفاهم يفترض
وجود ارض يتلاقى عليها الناس ويصطدم بعضهم ببعض ، الا ان تيريز لم
تكن تقـابل برنار قط بل اسرته ، ان كلماتهم لم تكن تبلغها الا في
النادر ، ولم يكن يدور في خلدها قط أن تجيبهم . هل كانت لهم مفردات

مشتركة بينهم فقط ؟ لقد كانوا يعطون الكلمات الاساسية معنى مختلفاً . واذا ما ندّت عن تيريز صرخة عميقة فان الاسرة كانت قد قررت قراراً نهائياً بأن المرأة الشابة تهوى فورات الغضب . وكانت السيدة دولاتراف تقول : «انني اتظاهر بانني لا اسمع ، واذا ما الحت فأنا أبدو كمن لا يعلق على الموضوع أية اهمية ؛ وهي تعرف اننا لا يمكن أن نُخدع ...

ومع ذلك فلم تكن السيدة دولاتراف ترضى عمـا تبديه تيريز من تصنع نحو الذين يبالغون بأنها تشبه ابنتها الصغيرة ماري . كانت اصوات التعجب (لا يمكنك ان تنكري ذلك) ... تثير في المرأة الشابة مشاعر حادة لا تملك اخفاءها في كل حين . فكانت تقول باصرار : «ليس في هذه الطفلة شيء مني . انظروا الى بشرتها السمراء وعينيها السوداوين اللامعتين . انظروا الى صورتي ، لقد كنت فتاة صغيرة شاحبة» .

لم تكن تريد ان تشبهها ماري . ولم تكن تريد ان ترى شيئاً مشتركا بينها وبين هذا الجسد المنتزع من جسدها . وراج نبأ بأن مشاعر الامومة لم تكن تعتمل في نفسها . الا ان السيدة دولاتراف كانت تؤكد بأن تيريز تحب ابنتها وفق طريقتها : «يجب الا نطلب اليها ، لا شك ، أن تراقب حمامها أو تبدل لها أقمطتها : فليس هذا من عملها ، ولكنني رأيتها تلبث ليالي كاملة جالسة قرب السرير ، مانعة نفسها من التدخين كي تنظر الى الصغيرة وهي نائمة ... ثم ان لدينا خادمة رصينة جداً ، كما ان آن هنا . آه ! امـا هذه فأنا اؤكد لكم بأنها ستكون أمـا صغيرة ممتازة» ... والحق ان آن قد عادت فعاشت منذ ان بدأت الطفلة تتنفس في المنزل . ان السرير ليجتذب النساء دائماً الا أن آن كانت تعنى اكثر من اي انسان آخر بالطفلة ، بفرح عميق . ولقد سالمت تيريز كي يتاح لها أن تدخل الى غرفة الصغيرة بمزيد من الحرية . لقد اعلنت السلم بينها وبين تيريز دون أن يبقى اي اثر لمودتها القديمة ، عدا الحركات والنداءات

التي يتبادلها افراد الاسرة. كانت الشابة تخشى اكثر ما تخشى من غيرة الامومة لدى تيريز : «ان الصغيرة لتعرفني أكثر مما تعرف امها ، فهي تضحك إما رأتني . كنت بالامس احملها بين ذراعي فراحت تصرخ حين ارادت تيريز أن تأخذها . انها لتؤثرني حتى لأتضايق بعض الاحيان من ذلك» ...

كانت آن مخطئة في برمها . ذلك بان تيريز في هذه الفترة من حياتها كانت تشعر بأنها منفصلة عن ابنتها انفصالها عن كل ما عداها . كانت تنظر الى الكائنات والاشياء وجسدها وروحها نفسهما كأنها سراب أو دخان معلق بعيداً عنها . وكان برنار وحده يتخذ في هذا العدم شكل واقع رهيب : بدنه وصوته الصادر من انفه ، ونبرته الجازمة هذه وذاك الرضا . ما السبيل الى الخروج من العالم ؟ وأين تذهب ؟ . كانت طلائع الحرارة تثقل تيريز ، ما من شيء ينبئها بما سيحدث . ماذا سيجري هذه السنة ؟ انها لا تتذكر أي حادث أو خصومة ، وهي تذكر أنها مقتت زوجها اكثر من العادة في يوم عيد الجسد بينما كانت تراقب تطواف القربان من خلال خصاص النافذة شبه المغلقة . كاد برنار أن يكون الشخص الوحيد الذي يسير خلف مظلة القربان . لقد غدت القرية مقفرة في غضون ثوان قليلة ، كأن اسداً لا حملًا قد اطلق في الشوارع ... ودخل الناس حجورهم كيلا يضطروا أن يحسروا عن رؤوسهم أو يركعوا، وما ان ابتعد الخطر حتى فتحت الابواب واحداً بعد واحد . وتفرست تيريز في وجه الكاهن الذي كان يسير وعيناه شبه مغلقتين ، وهو يحمل بين يديه هذا الشيء الغريب . وكانت شفتاه تتحركان : من كان يخاطب بنبرة الحزن هذه ؟ وكان خلفه تماماً برنار «الذي يقوم بأداء واجبه» .

. . .

توالت أسابيع عدة دون أن تسقط قطرة من المطر ، فماش برنار في خوف من الحريق ، وعاد يتألم في اعماق قلبه . لقد احترقت خمسة آلاف

هكتار في ناحية (لوشا) : ولو هبت الريح من الشمال لاحترقت صنوبراتي في (باليزاك) ، كانت تيريز تنظر شيئاً لا تعرفه من هذه السماء الثابتة ، لن يهطل المطر ابداً ... ستشتعل الغابة المجاورة ذات يوم ولن تكون القرية نفسها بمنجى من ذلك . لماذا لا تحترق قرى (اللاند) أبداً ؟ كانت ترى أن من الظلم أن يختار اللهيب اشجار الصنوبر دائماً ولا يختار الرجال لحرقهم يوماً . وكانوا يناقشون في جلسات الاسرة على نحو غير محدد اسباب هذه النكبة : أهي لفافة مرمية ؟ أهي النوايا السيئة ؟ وراحت تيريز تحلم بأن تنهض في احدى الليالي فتخرج من المنزل وتبلغ احفل غابة بالهشيم وترمي لفافتها ، حتى ليسوّد الدخان سماء الافق ... ولكنها طردت هذه الفكرة من ذهنها ، لأن حب اشجار الصنوبر كان في دمها ؟ ان حقدها لم يكن ينصب على الاشجار .

. . .

ها هي ذي اثناء مواجهتها للفعلة التي ارتكبت . اي تفسير تستطيع أن تقدم لبرنار ؟ لا بد ان تذكره بالأمر الذي حدث مرحلة بعد مرحلة . كان ذلك يوم شب الحريق الكبير في (مانو) . كان ثمة رجال يدخلون قاعة الطعام حيث كانت الاسرة تطعم بسرعة . وكان بعضهم يؤكد ان النار تبدو بعيدة جداً عن سان كلير ، بينما يلح غيرهم على ضرورة قرع ناقوس الخطر . كان عبير الصمغ المحترق يضمخ هذا اليوم المستعر ، وبدت الشمس كأنها متسخة . ان تيريز لتستعيد رؤية برنار ويده القوية بشعرها الكثيف تذهل عن ذاتها وهي فوق الكأس ، بينا قطرات الفولر تتساقط في الماء ، وتجرع الدواء دفعة واحدة دون أن ترهقه الحرارة ، وخطر ببال تيريز ان تنبهه الى أنه ضاعف كمية الدواء المألوفة . قام الجميع عن الطاولة ما عدا تيريز التي كانت تقشر لوزاً غضاً ، بعيدة كل البعد عن هذه الحركة ، غير آبهة بهذه المأساة ، شأنها امام كل مأساة لا تتعلق

بها . لم يُدق ناقوس الخطر ، وعاد برنار اخيراً : « في هذه المرة كنتِ على صواب اذ لم تتحركي : فلقد شب الحريق في ناحية مـــانو » ... ثم سألها : «هل تنـاولت قطرات الدواء» ؟ ودون أن ينتظر الجواب راح يسقط القطرات في كأسه . وصمتت هي ، عن كـــل ، لا شك ، او عن تعب . مـاذا كانت تتمنى في تلك اللحظة ؟ «يستحيل أن أكون قد تعمدت أن اصمت» .

ومع ذلك ، فحين سألها الطبيب (بدماي) وهو واقف قرب وسادة برنار الذي كان يتقيأ ويبكي ، عن حوادث النهار ، لم تخبره بمـا شاهدت من امور على الطاولة . كان من السهل ، رغم كل شيء ، ان تلفت انتباه الطبيب ، من غير ان تعرض نفسها للخطر ، الى الزرنيخ الذي تنـاوله برنار . كان بامكانها ان تقول له مثلاً : «لم ألحظ ذلك في حينه ... فقد كنا جميعاً مذهلين بسبب هذا الحريق ... أما الآن فانا أقسم بأنه تناول كمية مضاعفة» ... لقد لبثت صامتة لا تنبس ؛ ترى هل خامرهـا شعور بضرورة الافصاح عما رأت ؟ ان الفعل الذي كان ، اثناء تناول الغداء ، راقداً في داخلها ، من غير علمها ، بدأ آنذاك يبرز من اعماق كيانها — وهو لم يتخذ شكلاً بعد ، ولكنه كان نصف واع .

بعد رحيل الطبيب ، نظرت الى برنار الذي نام أخيراً وفكرت في نفسها : «لا شيء يثبت إن هذا ناتج عن ذاك ، فربما كانت هذه نوبة من التهاب الزائدة ، رغم عدم وجود أية ظاهرة مرضية اخرى ... أو حالة عدوى زكام » . الا ان برنار استعاد في اليوم التـالي صحته ونهض من فراشه . « كان ثمة احتمالات ان يكون من ذاك » . لم تكن تيريز لتؤكده ، بل كانت تود أن تتأكد منه» . اجل لست أشعر قط بـأنني كنت عرضة لتجربة رهيبة ، كل ما في الامر أنني اردت ان اشبع هذا الفضول الغريب بعض الشيء . وفي اليـوم الذي سبق دخـول برنار الى

الصالة اسقطت قطرات من الفولر في الكأس واذكر انني رددت في نفسي : «انما اضع هذا مرة واحدة كي يطمئن قلبي ... ولا استطيع ان اعرف هل كان مرضه بسبب ذلك ، فلأفعل ذلك مرة واحدة وهذا كاف» .

. . .

تباطأ القطار في مسيره ، وصفّر طويلًا ثم تابع سيره . وظهرت مرتين أو ثلاثاً أنوار في الظلال : تلك محطة سان كلير . ولكن ليس هناك شيء تريد تيريز أن تتفحصه ، فقد غارت في الجريمة الفاغرة فاها ، لقد اجتذبتها الجريمة ، أما ما تلا ذلك فان برنار يعرفه جيداً كما تعرفه هي : عودة المرض المفاجئة ، وسهر تيريز عليه ليل نهار ، مع ما بدا عليها من خور، ورغم عجزها عن ان تأكل اي شيء (حتى بلغ الحال ان نصحها برنار بأن تحاول تناول الفولر ، وحصلت من الطبيب « بدماي » على وصفة طبية بذلك) . يا للطبيب المسكين ! كان يدهش من هذا السائل الضارب الى الخضار الذي يتقيؤه برنار ، ولم يكن ليظن قط امكان قيام هذا الاختلاف بين نبض مريض ودرجة حرارته . لقد لاحظ مئات المرات هدوء النبض في مرض التيفوئيد وارتفاع الحرارة ارتفاعاً شديداً — ولكن ما معنى هذا النبض المتسارع وتلك الحرارة المنخفضة عن الحد الطبيعي ؟ لا شك ان في هذا عوارض عدوى زكام : فالزكام يعني كل شيء .

فكرت السيدة دولاتراف باحضار طبيب آخر . ولكنها لم تشأ أن تزعج هذا الصديق القديم . ثم ان تيريز كانت تخشى أن يفزع برنار ، ومع ذلك فان بدماي نفسه تمنى ، حوالي منتصف آب ، اثر نوبة مخيفة جداً ، لو يشاركه احد زملائه الاطباء في الرأي ، ولحسن الحظ تحسنت حالة برنار منذ الصباح التالي ؛ وتحدث الناس عن نقاهته بعد اسابيع

ثلاثة . قال بدماي : «لقد جعلته ينجو ، ولو اتيح للطبيب الكبير أن يحضر لاستأثر بكل المجد في هذه المعالجة» .

نُقل برنار الى ارجلوز ، معتقداً أنه شفي شفاء تاماً كما يصيد اليام . وتعبت تيريز كثيراً في هذة الفترة ، لأن نوبة حادة من الروماتيزم قد ألزمت العمة كلارا الفراش ، فوقع عبء الاعمال كله على كاهل المرأة الشابة : مريضان وطفل ، عدا الاعمال التي تركتها العمة معلقة . وبذلت تيريز كثيراً من العزيمة الصادقة كي تحل محلها في العناية بفقراء ارجلوز ، فكانت تجول على المزارعين ، وتعتني ، كالعمة كلارا ، باعداد الوصفات، وتدفع ثمنها من نفقتها ، لم يخطر لها ان تحزن لأن مزرعة فيلميجا ظلت مغلقة ، ولم تعد تفكر بجان ازفيدو ولا بأي انسان آخر في العالم . كانت تجتاز ، وحيدة ، نفقاً على نحو يبعث الدوار ؟ وكانت في اعتم نقطة منه ، وكان عليها ، كالبهيمة ودون أن تفكر ، ان تخرج من هذه الظلمات ، من هذا الدخان وتبلغ الهواء الطلق بسرعة ! بسرعة !

في اوائل كانون الأول هزمت برنار عودة مرضه : ففي أحد الاصباح استيقظ وهو يرتجف وساقاه لا حركة فيها ولا حس . وما أعجب ما تلا ذلك ! الطبيب الذي احضرته السيدة دولاتراف ذات مساء من بوردو ؛ وصمته الطويل ، بعد ان فحص المريض (كانت تيريز تحمل المصباح ، وتتذكر باليونت انها كانت أشد بياضاً من الشراشف» وشرح بدماي لزميله وهما على السّلم المعتم ، وقد خفض صوته لوجود تيريز التي كانت تسترق السمع ، بأن الصيدلي دركاي قد اراه وصفتين مزورتين من وصفاته : أضافت يد مجرمة الى الاولى : سائل الفولر ، وعلى الثانية ظهرت معايير قوية من الكلوروفوم والديجتالين والاكونتين . كان باليون قد احضرها من عند الصيدلي ، مع كثير غيرها في وقت واحد . وسارع دركاي الى بدماي صباح اليوم التالي ، وقد أقلقه أنه سلّم كل هذه

الادوية السامة ...

اجل ، ان برنار يعرف كل هذه الامور كما تعرفها تيريز نفسها . لقد نقلته عربة الاسعاف بسرعة الى عيادة في بوردو ؛ ومنذ ذلك اليوم بدأت تتحسن صحته . كانت تيريز قد ظلت وحدها في ارجلوز ، ولكن مهما تكن وحيدة فانها تشعر بجلبة كبيرة حولها ، شأن حيوان متبلد ينتظر اقتراب سرب من كلاب الصيد نحوه ، وتشعر باعياء ، كذاك الذي يشعر به الانسان بعد اذ يقوم بسير ارغم على القيام به - وكأنها وقد كانت قاب قوسين من الهدف ، ويدها ممتدة نحوه ، قد هوت الى الارض فجأة مكسورة الساقين . كان أبوها قد جاء ذات مساء في اواخر الشتاء ، فتوسل اليها ان تبرىء نفسها ، فما يزال هناك مجال لانقاذ كل شيء ، لقد قبل بدماي ان يسحب شكواه زاعماً أنه ليس على ثقة من ان احدى الوصفتين ليست مكتوبة بخطه . أما عن الاكونتين والكلوروفورم والديجتالين ، فلا يمكن ان يكون قد وصف مثل هذه المقادير القوية ، ولكن بما انه لم يظهر أي أثر منها في دم المريض ...

تتذكر تيريز هذه المشادة التي قامت بينها وبين ابيها ، قرب وسادة العمة كلارا . كانت نار الحطب تضيء الغرفة ، فلم يكن اي منهما ليرغب في ضوء المصباح . وكانت تيريز تشرح بصوتها الرتيب ، صوت تلميذ يلقي درسه (هذا الدرس الذي راجعه خلال لياليه التي لم ينم فيها) : « لقد التقيت في الطريق برجل ليس من اهالي ارجلوز ، قال لي بما انني كنت ارسل شخصاً الى دركاي ، فهو يؤمل ان اقبل بتعهد أمر وصفته ، فهو مدين بشيء من المال لدركاي ، ويفضل ألا يظهر في الصيدلية ... ووعد بأن يحضر ليأخذ الدواء من المنزل ، ولكنه لم يترك لي اسمه ولا عنوانه ...

- اوجدي شيئاً آخر يا تيريز ، ارجوك باسم الاسرة ، اوجدي شيئاً

آخر أيتها التاعسة» !

كان الاب لاروك يكرر توبيخه بعناد ، وإذ شعرت الصماء ، وقد نهضت نصف نهوض على وسائدها ، بأن تهديداً قاتلاً يثقل على تيريز تنهدت وقالت : « ماذا يقول لك ؟ ماذا يريدون منك ؟ وفيمَ يؤذونك » ؟

ووجدت القوة كي تبتسم لعمتها وتمسك بيدها ، بينما كانت تردد كفتاة صغيرة في درس التعليم الديني : « كان ذاك رجلاً رأيته في الطريق وكان الظلام شديداً فلم اتبين وجهه ؛ لم يقل لي في اية مزرعة يقيم . » وفي مساء آخر جاء يطلب الادوية ، ولسوء الحظ لم يلحظه أي شخص في المنزل .

٩

هاهي سان كلير أخيراً . لم يتعرف احد تيريز اذ نزلت من القطار . وبينما كان باليون يعيد تذكرتها ، دارت حول المحطة وبلغت الطريق من خلال الالواح المنضدة حيث كانت تقف العربة .

هذه العربة هي الآن ملجؤها ، ليست تخشى أن تلتقي بـأحد في هذه الدرب المتشققة ، ان كل قصتها التي أعادت تأليفها لتتهدم الآن : فما بقي شيء من هذا الاعتراف الذي اعدته . كلا : ومـا من شيء تقوله دفاعاً عن نفسها ، حتى ولا حجة هنـاك تتذرع بهـا ؛ ان أيسر الامور أن تصمت او ان تجيب عن الاسئلة التي تلقى عليها وحسب . ما الذي يمكن أن تخشاه ؟ ستمر هذه الليلة ، كما مرت الليالي كلهـا ، وستشرق الشمس غداً : انها لعلى ثقة من انها ستخرج منها مهما يكن من أمر . ولا يمكن أن يحدث مـــا هو أسوأ من هذه اللامبالاة وهذا الانفصال التـام الذي يبعدها عن العالم وعن كيانها نفسه . أجل ، الموت في الحياة : فهي تذوق الموت كما يمكن أن يذوقه انسان حي .

في منعطف الطريق ، تعرفت عيناها اللتان ألفتا العتمة ، هذه المزرعة التي تشبه المنازل القليلة فيها حيوانات مضجعة وناعة . في هذا المكان كانت آن تخاف ، فيما مضى ، من كلب كان يلقي بنفسه دائمـــاً على عجلتي دراجتها ، وفي مكان أبعد كانت اشجار الحور تكشف عن أحد الغيطان ، وكانت رطوبة هاربة تتوضع فوق خدود الفتاتين الملتهبة في الأيام الشديدة الحرارة . وثمة صبي فوق دراجة تلتمع اسنانه تحت قبعته الصيفية ، ورنين جرس ، وصوت يصرخ : «انظروا ، هـاءنذا ارفع يدي عن المقود» ! هذه الصورة الغامضة هي التي تحتفظ بها تيريز ، وهي كل مـــا تجده في الايام التي انصرمت ، كي تريح عليها قلبها البالغ الاعياء . كانت تكرر تكراراً آلياً كلمات موزونة على وقع حوافر الخيل : «عدم فائدة حياتي – عدم حياتي – وحدة دون حدود – مصير لا مخرج منه» . آه ! لن يبدر عن برنار ذاك التصرف الوحيد الممكن . ليته يفتح ذراعيه مع ذلك دون ان يطلب اي شيء ! ليتهـا تستطيع ان تسند رأسهـا الى صدر انساني ، وتبكي امام جسد حي !

لمحت هشيم الحقل حيث جلس جـان ازفيدو في أحد الايام القائظة . فليقل الناس انها ظنت ان هناك مكاناً في العالم تستطيع ان تتفتح فيه وسط كائنات يمكنهم أن يفهموها ، وقد يعجبون بهـا ويحبونها ! غير ان وحدتها كانت ملتصقة بها اكثر من التصاق القرح بالأبرص : «ما من احد يستطيع ان يفعل شيئاً من أجلي ؛ وما من أحد يستطيع ان يفعل شيئاً ضدي» .

«هذا هو السيد ، وهذه هي الآنسة كلارا» .

جذب باليون أعنة الخيل ، فتقدم خيـالان . اذن فقد جاء برنار ، وهو ما يزال هزيل الجسم ، لملاقاتها ، يرغب ان يطمئن وهو نافد الصبر ، ونهضت قليلاً واعلنت من بعيد : « منع محاكمة ! ». وساعد برنار العمة

على الصعود الى العربة ، وكان جوابه الوحيـــد عن ذلك : « كان هذا متوقعاً » ، ثم تنـاول الأعنة لأنـ باليون سيعود ماشياً . جلست العمة كلارا بين الزوجين . وكان لا بد من ان يصرخ في أذنها بأن كل شيء قد سوي (بل لم تكن عندها عن المأساة إلا فكرة مشوشة) . وراحت الصماء على عادتها تتكلم حتى لتنبهر أنفاسها ، كانت تقول : كانوا دائماً يتبعون المخطط نفسه وان قضية دريفوس قد عادت : « افتروا ، افتروا ، فسيظل دائماً شيء من ذلك . لقد كانوا اقوياء على نحو قاس ، وقد أخطأ الجمهوريون اذ لم يراقبوهم . فما ان تترك أقل فرصة لتلك الحيوانات النتنة حتى تقفز فوقك » . وكانت هذه الصرخـــات تعفي الزوجين من تبادل أية كلمة .

وتسلقت العمة كلارا السلّم لاهثة الانفـــاس ، وقد حملت شمعداناً في يدها :

« ألا تنامان ؟ لا بد ان تيريز منهوكة القوى ، ستجدين في الغرفة قدحاً من المرق ودجاجة باردة » .

ولكن الزوجين ظلا واقفين في الرواق ، ورأت العجوزُ برنار يفتح باب الصالة ويختفي امام تيريز التي لحقت به . ولو لم تكن صماء لألصقت أذنها ... إلا أنهما لم يكونا ليحذرانها ، تلك المُحاصَرَة الحية ، وأطفأت شمعتها مع ذلك وعادت فنزلت على رؤوس اصابعها ، ونظرت من خلال ثقب الباب : كان برنار ينقل المصباح من مكان الى مكان ؛ وبدا وجهه الذي أضيء بشدة ، خائفاً ووقوراً معـاً . رأت العمة ، من الخلف ، تيريز جالسة . كانت قد ألقت معطفها وقبعتهـا على احد المقاعد ، وكانت النار تدخن حذاءها المبلل . وبعد لحظة التفتت نحو زوجها ومُرّت العجوز اذ رأتها تبتسم .

* * *

كانت تيريز تبتسم ، ففي المدى القصير زماناً ومكاناً ، بين الاصطبل والمنزل ، بينما كانت تمشي بجانب برنار ، رأت فجأة ، لقد خيل اليها انها رأت ، ما كان عليها ان تقوم به . ان مجرد الاقتراب من هذا الرجل قد قضى على أملها في ان تفسر له سلوكها وتستسلم . كم تبدّل شكل الاشخاص الذين نعرفهم اكثر من سواهم منذ ان يبتعدوا عنا ! فخلال كل هذه الرحلة ، ارغمت نفسها ، دون علم بذلك ، على أن تعيد خلق برنار جديد بأن يفهمها ويحاول ان يفهمها – ولكنه بدا لها منذ أن ألقت عليه أول نظرة ، كما كان هو في الواقع ، انساناً لم يضع نفسه مكان الآخرين مرة واحدة في حياته ، انساناً يجهل هذا الجهد الذي يبذله المرء ليخرج من ذاته ، لكي يرى ما يراه خصمه » . وفي الحق ، فهل كان برنار يصغي اليها وحسب ؟ كان يجتاز الحجرة الواسعة الرطبة المنخفضة ، وأرضها التالفة في بعض الأماكن تقرقع تحت اقدامه . لم يكن ينظر إلى امرأته – فقد كانت نفسه محملة بكثير من الكلام الذي أعده منذ زمن بعيد . وكانت تيريز تعرف هي أيضاً ما سيقول . إن أيسر الحلول هو الحل الذي لا يخطر ببالنا أبداً . كانت ستقول له : « سأختفي ، يا برنار ، فلا تهتم بي ، سأختفي فوراً اذا شئت ذلك ، سأغيب في الليل . فلا الغابة ولا الظلمات تخيفني : لأنها تعرفني . اننا نعرف بعضنا بعضاً . لقد خُلقت على صورة هذا البلد القاحل حيث لا شيء حياً فيه غير العصافير التي تمرّ والخنازير المتنقلة . انني أرضى بأن انبذ ، وان تحرق كل صوري ، وألا تعرف ابنتي اسمي ابداً ، وان أكون بالنسبة للاسرة كأنْ لم اوجد قط » .

كانت تيريز قد فتحت فمها ، قالت :

« دعني اختفي يا برنار » .

التفت برنار على نبرة هذا الصوت ، وهرع من أعماق الحجرة ، منتفخ

الاوداج ، يتكأكأ في كلامه :

« ماذا ؟ هل تجرؤين على أن تدلي برأي وتبدي رغبة . كفى ، لا تضيفي كلمة واحدة ، فليس عليك إلا ان تصغي وتتلقي أوامري ، وتتلاءمي مع احكامي التي لا تنقض » .

لم يعد يتأنىء في كلامه ، فهو الآن يربط بين الجمل المهيئة بعناية . كان يعبر عن أفكاره بنبرة رصينة وهو مستند الى المدفأة ، ويسحب ورقة من جيبه ويستشيرها . لقد ذهب عن تيريز الخوف ، بل هي ترغب في ان تضحك ، انه مضحك ، انه لشخص مضحك . لا أهمية لما يقوله بهذه النبرة الكريهة التي تبعث على الضحك في كل مكان ، في سان كلير وخارجها . لسوف تذهب ، لمَ كل هذه المأساة ؟ أي ضير في ان يختفي هذا الغبي من عداد الاحياء . انها لتلاحظ فوق الورقة التي ترتجف أظافره المتسخة ؛ ليس لقميصه أكمام ، انه واحد من اولئك الريفيين الذين يثيرون الضحك خارج ثقبهم ، ممن لا ترتبط حياتهم بأية قضية أو فكرة أو انسان . فالناس ، عن طريق العادة ، يعطون لوجود الانسان أهمية لامتناهية . كان روبسبير على صواب ، ونابليون ولينين ... رآها تبتسم فاستشاط غيظاً ، ورفع نبرة صوته ، وكانت مرغمة على الاصغاء :

« إنني امسك بك ؛ هل تفهمين ؟ ستطيعين الأوامر التي تتخذها الامرة ، وإلا ...»

— وإلا ... ماذا ؟

لم تعد تفكر باصطناع اللامبالاة ، بل اتخذت لهجة الاثارة والسخرية ، فصرخت :

« لقد فات الوقت ! فقد شهدت في صالحي ؛ ولست تستطيع بعد اليوم أن تنقض ما قلت ، فتدان بشهادة الزور ...

— يمكن دائماً اكتشاف فعل جديد . واني لأحتفظ في مكتبي بذلك

البرهان الذي لم ينشر . ليس هناك اسقاط للعقوبة والحمد لله !

فارتعشت وسألته :

« ماذا تريد مني ؟ »

فاستشار ملاحظاته ، ولبثت تيريز خلال بضع ثوان ، متيقظة لصمت ارجلوز العجيب . ان ساعة صياح الديك مـا تزال بعيدة ، ما من ماء حي يجري في هذه الصحراء ، ولا ريح تحرك قمم الاشجار التي لا تحصى.

« لست أذعن لاعتبارات شخصية . سأمّحي أنا : أما الاسرة فهي وحدها التي لها قيمة . ان صالح الاسرة قد أملى عليّ دائماً كل قراراتي . لقد قبلت ان اخدع عدالة بلدي في سبيل الحفاظ على شرف الاسرة ، وسيحاسبني الله على ذلك » .

كانت هذه اللهجة الفخمة تؤلم تيريز . وودت لو تتوسل اليه أن يعبر عن افكاره على نحو اسهل .

« المهم بالنسبة للاسرة ، ان يعتقد الناس اننا متآلفان ، وألا أبدو شاكاً ببراءتك امامهم . ومن ناحية أخرى فأنا أريد ان احترس مـا وجدت الى ذلك سبيلاً ...

– هل أخيفك يا برنار ؟

فتمتم : « الخوف ؟ كلا : بل الاشمئزاز » . وأضاف :

« فلنسرع ، ولنقل كل شيء مرة والى الابد : سنغادر هـذا المنزل غداً لنقيم بجـانبه في منزل ديكيرو ؛ لا أريد أن تقيم عمتك عندنا ، ستحمل اليك باليونت طعامك الى غرفتك ، ويُحظر عليك الدخول الى الغرف الاخرى كافة ؛ ولكنني لا أمنعك من التجول في الغابات . أما يوم الاحد فسنحضر معاً القداس الاحتفالي في كنيسة سان كلير ، يجب ان يراك الناس متأبطة ذراعي ، وسنذهب اول خميس من كل شهر ، في عربة مكشوفة الى السوق في ب . عند والدك كما اعتدنا ان نفعل ذلك دائماً .

- وماري ؟

ستذهب ماري غداً مع خادمتها الى سان كلير ، ثم تأخذها أمي الى الجنوب ، وستتعلل بقضية صحية . لا تؤملي على كل حال في أن نبقيها لك ! يجب ان نحميها هي الاخرى منك ! وحين اختفي انا فستصبح هي المالكة اذ تبلغ الحادية والعشرين من عمرها . لمَ لا يأتي دور الطفلة بعد الزوج ؟ ..

نهضت تيريز ، وكتمت صرخة :

« إذن فأنت تعتقد انني بسبب أشجار الصنوبر قد ... »

لم يعرف هذا الاحمق اذن أن يكتشف باعثاً واحداً بين آلاف البواعث المستترة وراء هذا العمل ، فهو يبتدع السبب الاحقر :

« طبعاً : فذلك بسبب اشجار الصنوبر... ماذا هناك غيرها ؟ يكفي ان نبحث عن السبب بطريق الانتقاء بالحذف . انني أتحداكِ أن تدليني على سبب آخر ... ومع هذا ، فلا قيمة لذلك . فأنا لم أعد اهتم بالموضوع ؛ لقد كففت عن طرح الاسئلة فأنت لست بشيء البتة ، إن ما له وجود هو الاسم الذي تحملين مع الاسف ! فخلال بضعة أشهر ، حين يقتنع الناس بأننا متفاهمان ، وحين تكون آن قد تزوجت من ابن ديغيليم ... هل تعلمين ان اسرة ديغيليم تطالب بفسحة من الوقت ، وانهم يطلبون ان يفكروا في الأمر ... في تلك الفترة ، يمكنني ان استقر في سان كلير ؛ أما أنت فستبقين هنا . سنقول انك مصابة بالنورستانيا أو بشيء آخر ...

- الجنون مثلًا ؟

- كلا ، فان هذا يسيء الى ماري . وعلى كل فلا بد من ان نعثر على اسباب معقولة ، هذا كل ما في الأمر » .

تتمتم تيريز : « في ارجلوز ... حتى الموت ... » اقتربت من النافذة

ثم فتحتها . عرف برنار في هذه اللحظة فرحاً حقيقياً ؛ ما أعظم سيطرته ، في هذا المساء ، على هذه المرأة التي طالما أذلته وأفزعته ! كم ينبغي أن تشعر بأنها محتقرة ! انه ليشعر بكبرياء لتلطفه . كانت السيدة دولاتراف تكرر على مسمعه قولها بأنه كان قديساً ؛ والاسرة كلها تثني على سمو نفسه : « وها هوذا يشعر للمرة الاولى بهذا السمو ، وحين كشفت له في المصحة ، ببالغ الحذر ، محاولة تيريز في تسميمه ، فان رباطة جأشه ، التي طالما امتدحها الناس ، لم تكلفه كثيراً من الجهود . فلا شيء هاماً بالنسبة لكائنات تعجز ان تحب ، وبما أن برنار لم يكن يحب ، فإنه لم يشعر إلا بنوع من الفرح المرتجف بعد ان أزيح عنه هذا الخطر الكبير : ما يمكن ان يشعر به رجل يكشف له الناس انه عاش خلال سنوات ، ومن دون ان يعلم ، في تآلف مع حمقاء شديدة الحمق . ولكن برنار كان يشعر في هذا المساء بقوته ؛ كان يسيطر على الحياة . وكان يعجب من انه لا توجد صعوبة تقاوم فكراً مستقيماً يحسن المحاكمة ؛ وكان مستعداً ، حتى في اليوم التالي لذاك الاضطراب ، ان يؤكد بأن المرء لا يصيبه الشقاء ابداً الا نتيجة لما جنت يداه . وهاهوذا قد سوّى أسوأ المآسي كما يسوّي أية قضية أخرى . لن يكاد يعرف أحد ذلك . فسينقذ المظهر ، ولن يرثي له احد بعد اليوم ، ولا يريد ان يكون موضع رثاء احد .

هل هناك مذلة في ان يتزوج المرء من وحش حين ستكون الكلمة الاخيرة له ؟ ثم ان في حياة العازب شيئاً مستعذباً ، كما ان اقتراب الموت قد غذّى فيه ، على نحو عجيب ، ميله القديم الى التملك والصيد والسيارة والطعام والشراب : للحياة أخيراً !

ظلت تيريز واقفة أمام النافذة ، كانت ترى بعض الحصى البيض وتستنشق شذا الاقاحي التي تحميها الاسلاك من القطعان ، ووراء ذاك المكان كان كتلة سوداء من السنديان تحجب اشجار الصنوبر ، ولكن

رائحتها الصمغية تملأ الليل . وكانت تيريز تعلم ان أشجار الصنوبر تحاصر المنزل ، شأن جيش من الاعداء لا يُرى ولكنه قريب جداً . وهؤلاء الحراس الذين تسمع أنينهم الاصم سيرونها تذوي طوال الاشتية ، وتلهث خلال الايام الحارة ، سيكونون شهوداً على هذا الاختناق البطيء. أغلقت النافذة واقتربت من برنار :

« إذن فأنت تعتقد بأنك ستحتفظ بي عندك عنوة ؟

– كما تشائين ... ولكن اعرفي جيداً : بأنك لن تخرجي من هنا إلا وأنت موثوقة اليدين .

– يا للمبالغة ! انني اعرفك : فلا تكن أسوأ مما أنت ، انك لن تعرّض الاسرة لهذا العار . انني مطمئنة الى ذلك كل الاطمئنان .

راح يشرح لها آنذاك ، كرجل قدر كل شيء ، ان ذهابهـا يعني اعترافها بجرمها ، والخزي في هذه الحال أمر لا يمكن ان تتجنبه الاسرة إلا ببتر العضو الفاسد وطرحه والتبرؤ منه أمام الناس .

وتخيلي ان هذا ما أرادت أن تعزم عليه أمي ! ولقد كدنا نترك للعدالة أن تتبع مجراها لو لم تكن هناك آن وماري ... ولكن الوقت لم يفت بعد ، لا تستعجلي الاجابة فأنا اتركك حتى الصباح .

قالت تيريز بصوت منخفض : يبقى لي والدي .

– والدك ؟ ولكننا على اتفاق تام معه ، فان له اعماله وحزبه والآراء التي يمثّل ، وهو لا يفكر إلا بإخماد الفضيحة مهما كلف الأمر . اعترفي على الأقل بما صنع من اجلك . واذا كان التحقيق قد تمّ بسرعة فذلك بفضله ... ثم لا بد انه شرح لك رغبته الجازمة أليس كذلك ؟

لم يعد برنار يرفع صوته . وكاد ان يكون بشوشاً . لم يكن ذلك لأنه يشعر بأقل تعاطف . ولكن هذه المرأة التي لم يكن يسمع حتى تنفسها قد سكتت اخيراً . لقد عرفت مكانهـا الحقيقي . وعاد كل شيء

الى ما كان عليه من نظام . لم يكن لسعادة انسان آخر ان تقاوم مثل هذه الضربة : فقد كان برنار فخوراً انه نجح في هـــذا الاصلاح ؛ كل الناس يمكن ان يخطئوا بل ان الناس كانوا جميعاً مخطئين حول تيريز — حتى السيدة دولاتراف التي كان من عادتها ان تحكم على النـاس بسرعة . ذلك بأن الناس لم يعودوا يبالون الآن كثيراً بالمبـــادىء ، ولم يعودوا يعتقدون بخطر تربية كتلك التي تلقتها تيريز ؛ انهـــا وحش لا شك ، ولقد حاول الناس ان يقولوا بأنها لو كانت تؤمن بالله ... فالخوف بداية الحكمة . هكذا كان يفكر برنار . وقال في نفسه ايضـاً : بأن الضيعة التي نفد صبرها رغبة في التمتع بعارهم ، ستصاب بخيبة أمل كل يوم أحد لرؤية هذه الاسرة متحدة كل هذا الاتحاد ! وربما استبطأ قدوم يوم الاحد كي يرى رؤوس النـــاس ! ... ومن جهة اخرى فان العدالة لم تخسر شيئاً في هذه القضية . تناول المصباح ، كانت ذراعه المرفوعة تضيء قذال تيريز :

« ألا تريدين ان تصعدي ؟

لم يبد عليها انها سمعته . فخرج وخلفها في الظلمة . كانت العمة كلارا مقرفصة في أسفل السلم فوق الدرجة الاولى . وإمّا تفحصته العجوز ابتسم بشيء من الجهد وأمسك بذراعهـا كي ينهضهـا . ولكنها قاومت — كلب عجوز امام سرير سيده المحتضر . وضع برنار المصباح على البـلاط وصرخ في اذن العجوز بأن تيريز قد تحسنت حالتهـا كثيراً ، غير انهـا تريد ان تظل وحدها بضع لحظات قبل أن تأوي الى فراشها .

« أنت تعرفين ان هذه هي أهواؤها الغريبة .

اجل ، ان العمة لتعرف ذلك : فقد كان من سوء حظها دائمـاً ان تدخل على تيريز حين تكون المرأة الشابة راغبة في ان تكون وحدها . وكان بحسب العجوز في أغلب الاحيان أن تفتح البـــاب كي تشعر بأنهـا تزعجها .

نهضت بجهد وهي مستندة الى ذراع برنار ، وبلغت الحجرة التي تشغلها فوق الصالة الكبيرة . ودخل برنار خلفهـــا ، وعني بأن يوقد شمعة على الطاولة ثم انصرف بعد ان طبع قبلة على جبينها . لم تكف العمة عن النظر اليه . تُرى ماذا كانت تقرأ على وجوه النـــاس الذين لا تسمع أصواتهم ؟ ثم أمهلت برنار فترة يصل فيها الى غرفته ، وعادت ففتحت الباب بلطف ... انه مـــا يزال على الدرج مستنداً الى الطوار : ولفّ سيكارة فرجعت مسرعة ترتجف رجلاها ، مبهورة الانفاس ، حتى انها لم تستطع أن تخلع ثيابها فلبثت مضجعة فوق سريرها وعيناها مفتوحتان .

١٠

كانت تيريز جالسة في ظلمة الصالة . ثمة جمرات ما تزال تتوقد تحت الرماد . لم تكن تيريز تتحرك وراحت تنبثق من اعماق ذاكرتها الآن بعد ان فات الوقت ، نتف من هذا الاعتراف الذي اعدته خلال سفرتها ولكن لماذا تؤاخذ نفسها انهــا لم تستخدمه ؟ الحق ان هذه القصة التي نسجت بكثير من الحذق ظلت بلا ارتباط مع الواقع . هذه الاهمية التي طاب لزوجها ان ينسبها الى احاديث ازفيدو الشاب ، يا لهـا من حماقة ! هيهات ان يكون لذلك أية قيمة ! كلا ، كلا : لقد كانت تطيع قانوناً عميقاً في داخلها ، قانوناً لا يرحم ، لم تهدم هذه الاسرة ، فهي التي ستهدم اذن ؛ لقد كانوا على حق في ان ينظروا اليها نظرتهم الى وحش ، ولكنها كانت تنظر اليهم ، هي ايضاً ، على أنهم وحوش ، فقد كانوا دون ان يبدو عليهم أي شيء يتبعون طريقة بطيئة لكي يعدموها . ان قوة الاسرة الآلية هذه ستتجه ضدي منذ اليوم – لأنني لم أعرف كيف اكبحها أو اخرج في الوقت الملائم من بين عجلاتها . لا فائدة في البحث عن اسباب اخرى غير هذه « لانهم كانوا هم . ولانني أنا ... » . ان اقنع وجهي

واخفي صفحتي وأخدعهم ، ذلك الجهد كله الذي استطعت ان اقوم به خلال اقل من عامين ، يخيل اليّ ان هناك مخلوقات اخرى (هم نظرائي) يستطيعون الاستمرار في ذلك حتى الموت ، في اغلب الاحيان ، وربما كان التآلف هو الذي ينقذهم او ان العادة تخدر احساسهم ، فيغدون مخبولين، نائمين على صدر الاسرة الحنون الكلي القدرة ، أمـــا أنا ، أما أنا ، أما أنا ... »

نهضت تيريز وفتحت النافذة واحست ببرودة الفجر . لماذا لا تهرب ؟ ليس عليها الا ان تخطو فوق هذه النافذة . هل يلاحقونها ؟ هل يسلمونها الى العدالة مرة اخرى ؟ انها لمخاطرة ، ولكن كل شيء أفضل من هـذا الاحتضار الذي لا نهاية له . كانت تيريز قـد جرّت مقعداً واسندته الى النافذة . ليس لديها مال ، فهي تمتلك آلاف الصنوبرات من غير فائدة : فبدون وساطة برنار لا يمكنها ان تقبض فلساً واحـــداً ، لكم ودت لو تغور خلال السهل كما فعل (داغيرّ) ذاك القاتل المطارد الذي كانت تيريز تكن له في طفولتها كثيراً من الشفقة (انهـا لتذكر رجال الدرك الذين صبت لهم باليونت الخمر في المطبخ بارجلوز) — وكان كلب امرة ديكيرو هو الذي اكتشف مـــكان الشقي ، فالتقطوه بين المشيم وهو يكاد يموت جوعاً . ورأته تيريز موثقاً الى عربة تبن . وقيل انه مـات في السفينة قبل ان يصل الى (كايّين) . السفينة ... والسجن ... أليسوا جديرين بأن يسلموها كما قالوا ؟ وهذا البرهان الذي يدعي برنار بأنه يتذرع به... اكذوبة ، لا شك ؟ اللهم إلا إذا كان قـد اكتشف في جيب المعطف القديم ، هذه الصرة من السموم ...

ستطمئن تيريز على ذلك . لذا راحت تصعد السلم بحذر ، وكلما صعدت اصبحت الرؤية اكثر وضوحاً بسبب ضوء الفجر الذي كان يضيء زجاج النوافذ في الاعلى . ها هي ذي الخزانة على سطح السقيفة ، حيث تتدلى

الثياب القديمة – الثياب التي لا يعطونها لأحد أبداً ، لانهم يرتدونها اثناء الصيد . ان لهذا المعطف الباهت جيباً عميقاً : كانت العمة كلارا تضع فيه نسيجهـا الصوفي ، في الوقت الذي كانت فيه هي ايضاً تخفي اليام في جيب منه منعزل . دست تيريز يدهـا فيه واخرجت منه الصرة المختومة بالشمع :

كلوروفورم : ٣٠ غراماً
حبات اكونتين : ٢٠
ديجيتالين صول : ٢٠ غراماً

وأعادت قراءة هـذه الكلمات والارقام . الموت . لقد كانت تفزع دائماً من الموت ، المهم الا ينظر المرء الى الموت مواجهة – وان يعد فقط التصرفات التي لا غنى عنها : فيسكب الماء . ويذيب الذرور ويشربه جرعة واحدة ويتمدد على الفراش ويغلق عينيه ، فـلا يسعى لرؤية اي شيء آخر وراء ذلك . فيم الخوف من هذا الرقـاد اكثر من اي رقاد آخر ؟ اذا كانت ترتجف فذاك لان اليد الصغيرة باردة . نزلت وتوقفت امام الغرفة التي تنام فيهـا ماري . الخادمة تغط في نومها في الغرفة كما ينخر الحيوان . دفعت تيريز الباب ، فرشحت خصاص النافذة ضوء النهار الذي يشرق. يبدو السرير الحديدي الضيق ابيض اللون في العتمة ، وكانت قبضتان صغيرتان موضوعتين فوق الشرشف ، والوسادة تفرق شكلاً مـا يزال غير تام . تعرفت تيريز هذه الاذن الكبيرة جداً : إنها اذنها وان الناس لعلى صواب ، ان جواباً صادراً عنها ، هو ههنا ، مخدّراً نائماً » . سأمضي ، غير ان هذا القسم مني سيظل ، لقد تم هذا المصير كله دون ان تحذف منه نقطة واحدة » . اهواء وميول ، وقوانين الدم ، والقوانين المحتومة . لقد قرأت تيريز ان اليائسين يحملون معهم اطفالهم الى الموت ؛ أما الفاضلون فيدعون الصحيفة تسقط من ايديهم وهم يقولون : « كيف

يمكن ان تحدث مثـــل هذه الاشياء ؟ » ان تيريز تشعر شعوراً عميقاً بامكان حدوث ذلك ، وفي سبيل لا شيء ، لانها وحش ... ركعت ولامست شفتاهـا ، بعض الملامسة ، يداً صغيرة مضجعة ، ودهشت من ان ما ينبجس من كيانها يصعد الى عينيها ويلهب وجنتيها : بعض الدمعات المسكينة منها ، وهي التي لا تبكي أبداً !

نهضت تيريز ونظرت الى الطفلة ايضاً ، ومضت اخيراً الى غرفتهـــا وملأت الكأس مـاءً ومزّقت الغلاف الشمعي ، وترددت بين علب السم الثلاث .

كانت النافذة مفتوحة : وبدت الديكة كأنهـــا تمزق الضباب الذي تحتفظ اشجـــار الصنوبر بقطع شفافة منه بين اغصانها . الريف مغمور بالفجر . كيف يمكن التخلي عن هـذا الضياء العظيم ؟ ما الموت ؟ ليس من يدري ما الموت . ان تيريز ليست متيقنة من العدم ، ولا واثقة ثقة مطلقة بعدم وجود احد هناك . تكره تيريز نفسها لشعورها بكل هـذا الخوف . فها هي ذي التي لم تتردد من دفع غيرها الى العدم تثور أمام العدم . كم يذلها جبنها ! اذا كان هذا « الكائن » موجوداً (وتستعيد في لحظة سريعة صورة عيـــد الجسد المرهق ، والرجل الوحيد الرازح تحت الثوب المذهب ، وذاك الشيء الذي يحمله بـــين يديه ، وشفتيه اللتين تتحركان ، ومسحة الالم تلك) ، وبما أنه موجود ، فليثنِ اليد المجرمة قبل ان يفوت الاوان – واذا كانت هذه مشيئته ان تعبر المرءَ روحٌ مسكينة عمياء ، فليقبل ، بمحبة على الاقل ، هـــذا الوحش ، خليقته . تسكب تيريز الكلوروفورم في المـاء . ان اسمه أليف لديها ، لا يبعث فيها كثيراً من الخوف ، لانه يثير في ذهنها صور النوم . فلتسرع ! ان المنزل ليستيقظ : فقـد فتحت بالبونت المصاريع في غرفة العمة كلارا . بماذا تصرخ هذه في اذن الصماء ؟ في العادة ان الخادمة تفهم العمة بحركة

شفتيها . ضجة ابواب ووقع اقدام متسارع . ليس لدى تيريز من الوقت ما يبيح لهـــا غير ان تلقي بوشاح على الطاولة كي تخفي السم . تدخل باليونت دون ان تطرق الباب :

« ماتت الآنسة ! وجدنها ميتة على سريرها في كامل ثيابها . لقد برد جسمها » .

. . .

لقد وضعوا مسبحة ، مع ذلك ، بين اصابع العجوز الملحدة وصليباً فوق صدرها . كان بعض المزارعين يدخلون ويركعون ويخرجون بعد ان يتفحصوا طويلاً تيريز الواقفة عند آخر السرير : (ومن يدري ان لم تكن هي أيضاً التي ارتكبت هذا العمل بجرأة) ذهب برنار الى سان كلير كي ينبىء الاسرة ويهيء سائر المراسيم . لا بد انه قال في نفسه أن هذا الحادث جاء في الوقت المناسب ، فهو يصرف الاذهان عن غيره . تنظر تيريز الى هذا الجسد ، هذا الجسد الهرم المخلص الذي اضجع تحت قدميها في الفترة التي كانت ستلقي فيها بنفسها الى الموت . مجرد مصادفة وتوافق. ولو انهم حدثوها عن ارادة خاصة لرفعت كتفيها . قـــال الناس بعضهم لبعض : « أرأيتم ؟ انها لا تتظاهر حتى بالبكاء ! » . تتحدث تيريز في سرها الى تلك التي لم تعد هنا : ستعيش ، ولكن كجثة بين ايدي الذين يكرهونها . ولن تحاول ان ترى شيئاً فيا وراء ذلك .

احتلت تيريز مكانها في الجنازة . وفي الاحد التالي دخلت الكنيسة مع برنار الذي اجتاز صحن الكنيسة جهاراً بدلاً من ان يسير في الجهة الجانبية على عادته ، ولم ترفع تيريز برقعها الحريري إلا حين جلست في مكانها بين حماتها وزوجها . كان ثمة عمود يحول بينها وبين حضور المأتم . أما أمامها فلم يكن إلا الجوقة . كانت محاصرة من جميع الجهات : فالجمهور خلفها ،

وبرنار الى يمينها ، والسيدة دولاترايف عن يسارها ، وذاك وحده المفتوح أمامها ، كالحلبة امام النور الذي يخرج من الظلمة : هذا المدى الفارغ ، حيث يقف رجل متنكر بين طفلين وهو يهمس ، وذراعاه مفتوحتان قليلاً .

١١

عاد برنار وتيريز مساءً الى ارجلوز ، الى منزل ديكيرو الذي ظلّ شبه مهجور منذ اعوام . وكانت مدافئه تدخّن ، ونوافذه صعب اغلاقها ، والريح تلج من تحت الابواب التي قضمتها الجرذان . إلا أن الخريف كان هذه السنة من الجمـــال حتى ان تيريز لم تتألم اول الامر من ضيق الحال هذه . وكان برنار يقضي يومه في الصيد فلا يؤوب إلا في المساء . ومـا ان يعود حتى يقيم في المطبخ فيتناول عشاءه مع باليون وزوجته : كانت تيريز تسمع ضجة الشوَك ، والاصوات الرتيبة . كان الظلام يحل بسرعة في شهر تشرين الاول ، وان بعض الكتب القليلة التي استحضرتها تيريز من المنزل المجاور كانت تعرفهـــا جيداً . ولم يلبّ برنار رغبتهـا في ان تستحضر عدداً من الكتب من كتبيّها في بوردو . لقد سمح لها فقط ان تجدد مدّخرها من السكائر. كانت تشعل السكائر... ولكن الدخان الصمغي المضغوط كان يلهب عينيها ويحرق حنجرتها التي أضرّ بها الدخان . ومـا تكاد باليونت تحمل بقايا طعــامٍ التهم بسرعة حتى تطفىء تيريز المصباح وتنام . كم ساعة بقيت ممددة دون ان ينقذها النوم ! كان صمت أرجلوز

يمنعها ان تنام : فكانت تؤثر الليالي العاصفة — لان الانين المبهم الذي ينبعث من قمم الاشجار يخفي في طيـــاته عذوبة انسانية . وكانت تيريز تستسلم لهذه الدهدهة . وكانت الليالي المضطربة ، ابان استواء الليل والنهار ، تجعلها تنام بأفضل من الليالي الهادئة .

ومهما كانت تبدو لهـــا الأمسيات طويلة لا تنتهي ، فقد كان يحدث مع ذلك ان تعود قبيل الغسق ، — سواء لأن احدى الامهـــات قد امسكت طفلها من يده ، حين رأتها ، وأدخلته بقسوة الى المزرعة — أو لأن احد البقـارين الذي كانت تعرف اسمه ، لم يردّ على تحيتها . آه ! ما كان اجمل ان تتيه وتغرق في اعمـاق بلدة عامرة بالسكان ! فلم يكن في ارجلوز راعٍ واحد لا يعرف اسطورتها (لقد اتهمت بموت العمة كلارا) لم تكن تجرؤ على اجتياز أية عتبة ، وكانت تخرج من منزلها ، من باب موارب ، وتتجنب المنازل ، وبحسبها ان تسمع صوت ارتجـاج عربة من بعيد حتى تلقي بنفسها في طريق قريب منهـــا . كانت تسير مسرعة ، بقلب قلق كقلب طريدة ، وتضجع تحت الهشيم ، ريثما تمر احـــدى الدراجات .

أما يوم الاحد ، فلم تكن تحسّ ، وهي تحضر القداس في سان كلير بذلك الهلع ، وكانت تشعر ببعض الراحة المؤقتة . وكانت نظرة الضيعة تبدو لها اكثر رفقاً . ولم تكن تعلم ان أباهـــا وامرة لاتراف كانوا يصورونها في ملامح ضحية بريئة مصابة اعمق الاصابة « إننـــا نخشى ألا تتعافى منها المسكينة الصغيرة ؛ فهي لا تريد ان ترى اي انسان ، ولقد اوصانا الطبيب بألا نخالف لها امراً . ان برنار يحيطها بكثير من العناية ، إلا انها قد اصيبت في معنوياتها ... »

. . .

هبت ، في الليلة الاخيرة من تشرين الاول ، ريح عاصفة ، آتية من

المحيط الاطلسي ، فعصفت بقمم الاشجار عصفاً طويلاً ، وظلت تيريز ، وهي نصف غافية ، متنبهة لهدير المحيط ، ولكنها لم تستيقظ في منبلج الفجر على صوت عويل الريح ذاته ، دفعت مصاريع النوافذ ، وظلت الغرفة معتمة : كان مطر دقيق ملتحم يسيل فوق الاسطحة المشتركة ، وعلى اوراق السنديان التي ما تزال كثيفة. لم يخرج برنار في ذلك اليوم. كانت تيريز تدخن ثم تلقي بسيكارتها وتمضي الى السطح وتنتظر زوجها الذي يهيم من حجرة الى حجرة في الطابق السفلي . وكانت رائحة الغليون تتسرب حتى تبلغ الغرفة ، وتطغي على رائحة تبغ تيريز الاشقر ، وتعرفت في ذلك على رائحة حياتها القديمة . هذه هي بداية الطقس الرديء ... كم يوماً يجب عليها ان تعيش بجانب هذه المدفأة حيث تنطفىء النار ؟ كان العفن ينزع الاوراق عن الجدران في زوايا الغرفة ، وعلى الحيطان ما تزال ماثلة آثار الصور القديمة التي اخذها برنار ليزين بها الصالة في سان كلير، والمسامير الصدئة التي لا تحمل أي شيء ؛ وثمة فوق المدفأة ، في اطار مثلث مصنوع من زخارف مزينة صور شاحبة كأن الموتى الذين تمثلهم قد ماتوا فيها مرة ثانية : والد برنار ، وجدته ، وبرنار نفسه وعلى رأسه قبعة من طراز « ابن الملك ادوار » . ان عليها ان تعيش في هذه الغرفة كل هذا اليوم ايضاً ، والاسابيع من بعد والشهور ....

. . .

حين أرخى الليل سدوله ، لم تعد تيريز تطيق صبراً ، ففتحت الباب بهدوء ونزلت ، ثم دخلت المطبخ . رأت برنار جالساً على كرسي واطىء امام النار ، فنهض فجأة ، وتوقف باليون عن تنظيف البندقية . وتركت باليونت نسيجها يسقط من يديها . نظر اليها الثلاثة نظرة عميقة التعبير ، حتى أنها سألتهم :

« هل أخيفكم ؟

ـ ألا تعرفين ان الاقتراب من المطبخ محظور عليك ؟

فلم تجب بشيء وتراجعت نحو الباب . استدعاها برنار فقال لها :

« ما دمت قد رأيتك ... فأنا أود ان أقول لك ان وجودي هنا ليس ضرورياً ، فقد استطعنا أن نخلق في سان كلير تياراً من التعاطف حولنا ؛ وان النـــاس يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقـــاد بأنك مصابة بالنورستانيا الى حد ما ، وقد أصبح من المعروف انك تفضلين أن تعيشي وحدك واني آتي في بعض الاحيان لأراك ، وسأعفيك من حضور القداس بعد اليوم ... »

فتهيأت تقول : « ان الذهاب الى الكنيسة لحضور القداس لا يضايقها أبداً » . فأجابهـــا بأن المهم ليس تسليتها ، وانتهى الى النتيجة التي كان يسعى اليها ، قال لها :

« وما دام القداس ، لا يعني شيئاً بالنسبة اليك ... »

فتحت فمها وبدت على وشك ان تتكلم ، ثم لبثت صامتة . وألح عليها بألا تفسد بأية كلمة أو حركة منهـا مثل هذا النجاح السريع جداً غير المتوقع الذي حققاه . سألته كيف حال ماري ، فقال بأن صحتهـا جيدة وبأنها ستذهب غداً مع آن والسيدة دولاتراف الى (بوليو) ، وسيذهب هو ايضاً ليمضي هناك بضعة أسابيع : شهرين على اكثر تقدير ، وفتح الباب وتوارى أمام تيريز .

في الصباح الباكر الحالك سمعت باليون يسرج العربة ، ثم صوت برنار واهتار الخيل وارتجـــاج العربة التي كانت تبتعد ، واخيراً سمعت صوت المطر يهطل فوق الأسطحة ، وعلى النوافذ الغائمة ، وفوق الحقل المقفر ، وفوق مئة كيلومتر من السهول والمستنقعات وفوق آخر التلال المتحركة ، وفوق المحيط .

أشعلت تيريز سيكارتها من السابقة التي انتهت من تدخينهـا ، وحوالي

الساعة الرابعة ارتدت « مشمعاً » وتوغلت في المطر . شعرت بخوف من الليل ، فعادت الى غرفتها. كانت النار مطفأة ، فنامت لأنها كانت ترتجف من البرد . وقريب الساعة السابعة حملت اليها باليونت بيضة مقلية مع لحم الخنزير ، فرفضت أن تأكلها ، اذ اصبحت تتقزز من طعم الشحم هذا في الايام الاخيرة ! المربى ولحم الخنزير دائماً . كانت باليونت تقول بأنه ليس لديها ما تقدمه افضل من ذلك : فقد منعها السيد برنار من ان تقدم لها الدجاج . وكانت تشكى من ان تيريز تجعلها تصعد وتنزل دون فائدة (فقد كانت مصابة بمرض القلب ، وبانتفاخ في ساقيها) وكان هذا العمل فوق طاقتها ؛ وإمّا تقم به فذاك من أجل السيد برنار .

أصيبت تيريز في تلك الليلة بالحمى ، وراح ذهنها الذي كان صافياً على نحو غريب يشيد حياة كاملة في باريس : كانت ترى مطعم (بوى) ذاك الذي جلست فيه ، ولكن دون ان يكون برنار معها ، بل كانت مع جان ازفيدو وبعض الصبايا . وضعت مشرب سكائرها الصدفي فوق الطاولة وأشعلت سيكارة من صنف (عبدالله) . كانت تتكلم وتشرح ما في قلبها ، والجوقة تعزف بهدوء . كانت تبهج دائرة من الوجوه المنتبهة اليها ، من غير ما دهشة ، وكانت احدى النساء تقول : « هذا ما حدث لي ايضاً... لقد شعرت بذلك انا ايضاً». وانتحى بها احد الادباء قال لها: « يجب ان تصفي كل ما تشعرين به ، فسنطبع يوميات امرأة معاصرة في مجلتنا » . واعادها شاب كان أقضه حبها بسيارته . فصعدا شارع (بوى) ، لم تكن تشعر باضطراب بل كانت تتمتع بهذا الجسم الفتي المضطرب الجالس الى يسارها . قالت له : «لا ، لا في هذا المساء ، فسأتعشى هذه الليلة مع احدى صديقاتي — ومساء غد ؟ — كلا ايضاً — أليس هناك مساء لا تكونين فيه مرتبطة بموعد ؟ — كلا تقريباً .. أو ابداً ان صح التعبير » .

كان في حياتها انسان واحد ، وبفضله يبدو لها سائر ما في العالم غير

ذي جدوى ، انه انسان ما ، لا يعرفه احد من جماعتها : مخلوق متواضع جداً ، غامض جداً ، ولكن وجود تيريز كله يدور حول هذه الشمس البادية لعينها وحدها ، وجسدها وحده يعرف حرارته . كانت باريس تزمجر كما تزمجر الريح في اشجار الصنوبر . ومهما كان هذا الجسد الملتصق بجسدها خفيفاً فإنه يمنعها من أن تتنفس ؛ ولكنها كانت تؤثر ان تختنق على ان تبعده عنها . (وقامت تيريز بضمه اليها ، وشدت بيمناها كتفه اليسرى ونفذت اظافر يدها اليسرى في كتفه اليمنى) .

نهضت حافية القدمين ، ففتحت النافذة ؛ لم تكن الظلمات باردة ، ولكن كيف يمكن ان تتخيل أن المطر قد يتوقف ذات يوم عن الهطول ؟ سينهمر المطر حتى نهاية العالم . لو كان لديها مال لهربت الى باريس ، وذهبت تواً الى جان ازفيدو وأوكلت اليه نفسها ، سيعرف كيف يدبر لها عملاً. أن تكون امرأة في باريس وحدها ، تكسب قوتها ، ولا ترتبط بانسان ... ان تكون بلا اسرة ! ولا تسمح إلا لقلبها بأن يختار القلوب التي يحب – لا بحسب مشيئة الدم ، ولكن وفق مشيئة الروح والجسد ايضاً . وابن تكتشف اقرباءها الحقيقيين ، ولو كانوا نادرين جداً ومتناثرين هنا وهناك ايضاً ... نامت آخر الأمر والنافذة مفتوحة . أيقظها الفجر البارد المبلل : كانت اسنانها تصطك برداً ولم تكن لها الشجاعة كي تنهض وتغلق النافذة – بل كانت عاجزة أن تمد يدها وتسحب الغطاء كذلك .

لم تنهض في هذا اليوم ، ولم تتزين ايضاً ، ابتلعت بعض لقيمات من المربى وارتشفت القهوة كي تستطيع ان تدخن . (ذلك بأن معدتها لم تعد تتحمل الدخان على الريق). كانت تحاول ان تسترجع تخيلاتها الليلية ، والى ذلك فلم يبق في أرجلوز من أثر للضجة . ولم يكن بعد الظهر أقل

حلكة من الليل . ففي هـــذه الايام ، وهي أقصر ايام السنة ، يوحّد المطر الكثيف الزمن ، ويخلط الساعات ، ويلتقي الشفق بالشفق في صمت جامد . ولكن تيريز لم تكن ترغب في النوم ، وان احلامهـا أصبحت أكثر دقة ، وصارت تتّبع نظاماً . كانت تبحث في ماضيها عن وجوه منـية ، وأفواه أحبتها من بعيد ، وأجساد غير متميزة قرّبتها من جسدها البريء التقاءات عابرة ، ومصادفات ليلية . كانت تنشىء لنفسهـا سعادة ، وتبدع بهجة ، وتخلق من كل القطع حباً مستحيل التحقيق .

« قالت باليونت لباليون ، بعد فترة من ذلك :

ــ انها لا تبرح سريرها ، وتترك المربى والخبز ، ولكنني أقسم لك بأنها تفرغ كل زجاجة المشروب ، فما نعطِ لهذه الساقطة تشربه كاملاً . ثم انها تحرق المطارف بسيكارتها ، فهي تدخن كثيراً حتى أصبحت أصابعها وأظافرها صفراً كأنما نقعتها في الارنيكا : ما أسوأ ذلك كله ! مطارف نسجت على نول النظافة... انتظري ربما أغيرها لك في بعض الاحيان! ».

كانت تقول انها لم تكن ترفض ان تنظف الغرفة أو ترتب الفراش ، ولكن هذه الكسول تأبى ان تخرج من بين المطـــارف ولم يكن ثمة ضرورة لأن تحمل باليونت بساقيها المتورمتين ، سطول المـــاء الساخن : فهي تجدها مـاءً على باب الغرفة حيث وضعتها في الصباح .

انفصل تفكير تيريز عن الجسد المجهول الذي أثارته مخيلتها طلباً للمتعة ، كانت قد تعبت من السعادة وشعرت بشبع من اللذة الخيالية ــ فاخترعت هرباً من نوع آخر . كان النـاس يركعون حول فراشها . وطفل من ارجلوز (احد الذين كانوا يهربون لدى اقترابها منهم) حمل الى غرفة تيريز وهو يحتضر ، فوضعت فوقه يدها التي جعلهـــا النيكوتين صفراء ونهض معافى . واخترعت احلامـــاً أخر أكثر تواضعاً : كانت تُعد منزلاً على شاطىء البحر وتتخيل الحديقـة والسطح وترتب الحجر وتختـار المفروشات

واحدة واحدة ، وتبحث عن مكان لمفروشاتها في سان كلير وتخاصم نفسها لاختيارها نوع النسيج ، ثم يبهت الديكور ويصبح أقل وضوحاً ودقة ولا يبقى إلا عريشة من الاشجار ومقعد أمام البحر . كانت تيريز تسند رأسها الى كتف انسان وهي جالسة ، وتنهض اذ تسمع نداء الجرس للطعام ، وتدخل في العريشة السوداء ، وانسان ما ، يسير بجانبها ويضمها بذراعيه فجأة ويجذبها اليه . وفكرت في نفسها : لا بد أن قبلة يمكن ان توقف الزمن ، انها لتتخيل انه يوجد في الحب ثوان لا نهاية لها . انها تتخيل ذلك ولن تعرفه ابد الدهر . ترى المنزل الابيض ايضاً والبئر ومضخة تصر ودوار الشمس المسقي يعطّر الباحة . سيكون الغداء استراحة قبل سعادة المساء والليل ، وسيكون من المستحيل مواجهة هذه السعادة لشدة ما تجاوز قدرة قلبنا : وهكذا فالحب الذي حرمت منه تيريز اكثر مما حرم منه اي مخلوق آخر ، كان آخذاً عليها نفسها ، داخلاً في صميم كيانها . انها لا تكاد تسمع صياح باليونت . بماذا تصرخ العجوز ؟ بأن السيد برنار سيعود من الجنوب ذات يوم دون ان ينبىء احداً بقدومه « وماذا سيقول حين يرى هذه الغرفة ؟ إنها حظيرة خنازير فعلاً . يجب على السيدة ان تنهض رضيت ذلك أم لم ترضى » . كانت تيريز جالسة على فراشها تنظر في فزع الى ساقيها الهزيلتين ، وبدت لها قدماها كبيرتين . لفّتها باليونت بمبذل ودفعت بها الى احدى الارائك . وبحثت بجانبها عن السكائر إلا ان يدها لم تقع إلا على الفراغ . تدخل من النافذة المفتوحة أشعة شمس باردة ، تثور باليونت وهي تحمل في احدى يديها المكنسة وتنبهر أنفاسها وتهمهم بالشتائم — باليونت تلك المرأة الصالحة ، ما داموا يتحدثون في الاسرة بأن ذبح الخنزير الذي سمّنته يستدر دموعها في عيد الميلاد من كل سنة . هي ناقمة على تيريز أنها لا تجيبها : فالصمت في نظرها شتيمة وآية إحتقار .

بيد ان صمت تيريز أمر خارج عن ارادتها. فحين أحس جسمها برطوبة

المطارف النظيفة ، خيل اليها انها قالت شكراً . والحق انها لم تنبس ببنت شفة ، وقذفتها باليونت وهي تخرج بالجملة التالية : «لا تحرقي هذه المطارف!» خافت تيريز ان تكون باليونت قد رفعت السكائر ، فمدت يدهـا الى الطاولة : لم تكن السكائر هناك . كيف يمكنها ان تعيش من غير ان تدخن ؟ يجب ان تلمس اصابعها في استمرار هذا الشيء الصغير الجـاف الحار ؛ ويجب من ثم ان تستنشقه على نحو غير محدد وأن تغرق الغرفة في الضباب الذي امتصه فمها ونفخه . لن تصعد باليونت إلا عند المساء ، وان أمامها بعد ظهر كامل تقضيه دون دخان ! أغلقت عينيها وأصابعها الصفر ما تزال تقوم بالحركة التي اعتادت ان تقوم بها حول السيكارة .

في الساعة السابعة دخلت باليونت الغرفة تحمل شمعة ، ووضعت الصينية على الطاولة : كان فيهـا حليب وقهوة وقطعة خبز . « ألست بحاجة الى شيء آخر ؟ » وانتظرت في خبث ان تطلب تيريز سكائرهـا ، ولكن تيريز لم تدر وجهها الملتصق بالجدار .

لا بد أن باليونت قد أهملت أن تحكم اغلاق النافذة : فقد فتحتها نفحة من الريح ، وملأ برد الليل الغرفة ، وشعرت تيريز أنهـا لا تملك الشجاعة كي تلقي عنها الاغطية وتنهض وتجري حافية القدمين لتبلغ النافذة . فظلت جامدة ، وقد لمّت جسمها وشدّت الغطاء حتى عينيها ، ولم تكن الريح الباردة تصيب منهـا غير اجفانها وجبينهـا . كان ضجيج الصنوبر الواسع يملأ ارجـاوز ، ولكن على الرغم من هذه الضجة التي تشبه هدير المحيط ، فقد كان صمت ارجلوز يرين مع ذلك . وفكرت تيريز بأنها لو أحبت ان تتألم لما كانت تغور الى هذا الحد تحت اغطيتها . وحاولت ان تدفعها عنها قليلاً ، فلم تستطع ان تظل عرضة للبرد إلا بضع ثوان ، ثم نجحت في ذلك ، من بعد ، فترة اطول ، كمن يلعب . وهكذا غدا ألمها ، دون عمد ، شاغلها — ومن يدري — فقد يكون علة وجودها في العـالم .

١٢

« رسالة من السيد » .

وإذ رأت باليونت ان تيريز لم تمد يداً لاستلام الرسالة التي قدمتها اليها ، ألحت تقول : لا شك في ان السيد ينبئنا بموعد عودته ، ويجب ان تكونَ على علم بهذا الموعد كي تُعدّ كل ما يلزم .

« لو رأت السيدة أن أقرأ ... »

قالت تيريز : « اقرئي ! اقرئي ! » واستدارت نحو الحائط كما تفعل دائماً في حضور باليونت . ومع ذلك فان مـا قرأته هذه جرها من خمودها .

« كنت سعيداً بأن أعرف ، بوساطة باليون ، ان كل شيء على مـا يرام في ارجلوز ...

لقد أنبأهم برنار بأنه سيعود بالعربة ، ولكن نظراً لأنه سيعمد الى التوقف في عدة مدن فانه لا يستطيع ان يحدد بالتدقيق موعد عودته .

« ولا شك في ان عودتي لن تكون بعد ٢٠ كانون الاول ، لا

تعجبي اذا رأيتني قد أتيت مع آن وابن ديغيليم ، فقد اعلنت خطبتهما في (بوليو) ، ولكنها ليست خطبة رسمية بعد ؛ ان ابن ديغيليم يريد أن يراك قبل كل شيء . وهذه مجرد قضية لياقة كما يؤكد ذلك . أما انا فأشعر أنه يريد أن يكوّن فكرة عن الموضوع الذي تعرفين . وانكِ لمن الذكاء حتى لتستطيعين ان تخرجي من هذا الاختبار . تذكري انك تتألمين وان معنوياتك منهارة . انني أتكل عليك اخيراً وانا اقدر الجهد الذي ستبذلين كيلا تفسدي سعادة آن أو تعرقلي النهاية السعيدة لهذا المشروع الذي يسر الامرة كل السرور من كل الوجوه – كما اني لا أتردد كذلك ، في هذه الحال ، في ان أجملك تندمين على كل محاولة للعرقلة ، ولكنني على ثقة انه ليس ما يدعو الى الشك في حسن تصرفك».

كان ذاك يوماً مشرقاً وبارداً . نهضت تيريز مذعنة لأوامر باليونت ، وسارت بضع خطوات وهي مستندة الى ذراعها ، في الحديقة ، ولكنها شعرت بكثير من العناء في تناول كل بياض البيضة . ليس هناك بعدُ إلا عشرة أيام لحلول اليوم العشرين من شهر كانون الاول . واذا قبلت السيدة ان تبذل شيئاً من الجهد ، فذاك اكثر مما ينبغي كي تقف على قدميها .

كانت باليونت تقول لباليون :

« لا يمكن ان يقال انها لا تبذل جهدها ، انها تفعل كل ما تستطيع ان تفعله . لقد اشتهر السيد برنار بترويض الكلاب الشرسة . هل تذكر يوم كان يضع في اعناقها « الطوق الاجباري » ؟ ولم يتطلب منه جعلها ككلبة مضجعة كثيراً من الوقت . ولكنه يحسن صنعاً بألاّ يطمئن اليها ... »

كانت تيريز ، في الواقع ، تبذل قصارى جهدها في التخلي عن الاحلام والنوم والتلاشي وترغم نفسها على المشي والأكل ، وعلى أن تغدو صافية

الذهن، أن ترى بعينيها الأشياء، الكائنات؛ وبما أنها عادت إلى أرض أحرقتها بنفسها وداست على رمادها وتنزهت بين الصنوبر الأسود المحروق، ستحاول أيضاً أن تتكلم، أن تبتسم وسط هذه العائلة، عائلتها.

في الثامن عشر، حوالى الساعة الثالثة في طقس غائم دون مطر، جلست تيريز قرب النار في غرفتها وضعت رأسها على ظهر المقعد مغمضة العينين. صوت المحرك أيقظها. تعرفت على صوت برنار في الردهة؛ سمعت أيضاً السيدة دولا تراف، وعندما فتح باليونت الباب دون أن يقرعه وهو منهك القوى، كانت تيريز قد وقفت أمام المرآة، تضع أحمر الشفاه على خديها وشفتيها. قالت: «يجب أن لا أخيف هذا الفتى».

لكن برنار كان قد اقترف خطأً بعدم صعوده أولاً عند زوجته. الإبن ديغيليم الذي وعد عائلته «أن يكون منفتحاً» كان يقول إن: «عدم الاستعجال يحث الفرد على التفكير». ابتعد قليلاً عن آن، عقد الفروة على عنقه ملاحظاً أن القاعات في الريف علينا أن لا نحاول تدفئتها. سأل برنار: «ليس عندكم حجرة في الأسفل؟ إذن أرض المنزل سيأكلها العفن دائماً إلاَّ إذا وضعت طبقة من الإسمنت...».

كان لدى آن دولا تراف معطفاً رمادياً، قبعة مخملية دون شريطة (ولكن كانت تقول السيدة دولا تراف، إنها غالية الثمن وهي أغلى من جميع قبعات أيام زمان بشرائطها وزينتها). إن مخمل هذه القبعة شديد الروعة لمصمم الأزياء «روبو». اقتربت السيدة دولا تراف من النار وأدارت وجهها نحو الباب. لقد وعدت برنار أن تكون على المستوى المطلوب. مثلاً، لقد أنذرت: «لا تطلب مني أن أقبلها. لا يمكن أن نطلب

ذلك من والدتك. فمجرد لمس يدها يثير عصبيتي». أنظر: إن الله يعرف أن ما اقترفته هو فظيع. ولكن ليس هذا ما يثير اشمئزازي فقط. كنا نعرف أن هناك أناساً بإمكانهم ارتكاب جريمة ما... ولكن... خبثها!! هذا ما هو فظيع بالفعل! أتذكر؟: «أمي، اجلسي على هذا المقعد سترتاحين أكثر...»، أتذكر أيضاً عندما كانت تخاف أن تضربك؟ «المسكين! يرتعب جداً من الموت. فمعاينة واحدة قد تقضي عليه...» والله يعلم أنني لم أكن أشك بشيء، ولكن كلمة «المسكين» في فمها قد فاجأتني».

والآن في قاعة أرجولوز للاستقبال لم تعد السيدة دولا تراڤ تكترث إلاّ للضيقة التي كان كل واحد يشعر بها. كانت تراقب عيني إبن ديغيليم المتسلطتين على برنار.

«برنار، عليك أن تذهب وترى ماذا تفعل تيريز... ربما هي مريضة».

كانت آن الغير آبهة لشيء، هي الأولى التي عرفت وقع الخطى المقتربة، تقول: «أسمعها تنزل». أحسّ برنار بنبضات قلبه تخفق بسرعة شديدة. يا للحماقة! لماذا لم يصل أمس؟ فقد كان بوسعه أن يحلّ الموضوع مع تيريز. ماذا ستقول؟ كان باستطاعتها التنازل دون ملامتها. كم هي بطيئة عند نزولها الدرج! وقف الجميع يراقبون الباب الذي فتحته أخيراً تيريز.

لا بد ان يتذكر برنار ، بعد سنوات عديدة جداً ، بأنه لدى اقتراب هذا الجسم المهدم ، وذاك الوجـــه الصغير الابيض المزين ، قد فكّر أول ما فكر بمحكمة الجنايات . إلا أن ذلك لم يكن بسبب جريمة تيريز . فقد عادت الى خيـــاله ، في ثانية واحدة ، تلك الصورة الملونة (للباريسي الصغير) التي كانت مع كثير غيرها تزين الغرف المصنوعة من الألواح الخشبيـة في بستان ارجـلوز – وبينما كان يطن الذباب وتصر الجنادب في الخارج في يوم شديد الحرارة كانت عينـاه ، عينـــا طفل ، تتفحصان هذا الرمم الأحمر والأخضر الذي يمثل (سجينة بواتيه) .

هكذا كان يتأمل الآن تيريز شاحبة اللون ، هزيـلة الجسم ، ويقدّر حماقته اذ لم يتخلص من هذه المرأة مهما كلّف الأمر – وكان شأنهم شأن من سيلقي الى الماء بلغم يمكن ان ينفجر بين ثانية واخرى . وكانت تيريز تبعث المأساة في الاذهان ، أرادت ذلك أم لم ترده – بل مـا هو أسوأ من المأساة : صحيفة الفضائح ؛ فيجب ان تكون مجرمة أو ضحية ... وقامت الاسرة بضجة تعجب وإشفاق غير متكلفة تقريباً ، حتى ان الفتى ديغيليم تردد في استنتاجاته ، ولم يعد يعرف كيف يفكر . قالت تيريز:

« ولكن الامر في منتهى اليسر ، ان رداءة الطقس تحول دون خروجي ، ولهذا فقد فقدت الشهية وأنا لا أكاد آكل . والخير للإنسان ان يهزل جسمه من ان يسمن ... وعلى كل فلنتحدث عنك يا آن انني سعيدة » ...

أمسكت بيديها (كانت جالسة وآن واقفة) وتأملتهـا ، وتعرفت آن جيداً ، في هذا الوجه الذي نخرته الاحاسيس ، الى هذه النظرة التي كان الحاحها في الماضي يثيرها . وتذكرت انها كانت تقول لها : « متى تكفين عن النظر اليّ على هذا النحو ! » .

« انني أبتهج لسعادتك يا صغيرتي آن » .

ابتسمت ابتسامة وجيزة « لسعادة آن » ولابن ديغيليم » – لهذه الجمجمة ولهذين الشاربين كشاربيْ الدوكي ، ولهذين الكتفين المتهدلين ، ولهذه السترة ، وللساقين الصغيرتين السمينتين تحت بنطال مخطط بالرمادي والأسود (وماذا بعد ؟ انه رجل كسائر الرجال – انه عريس ، في نهاية المطاف).
ثم نظرت من جديد الى آن وقالت لها :

– « انزعي قبعتك ... آه ! على هذا النحو أتعرفك يا عزيزتي » .

كانت آنّ ترى الآن عن كثب فماً معوجاً بعض الشيء ، وتينك العينين الجافتين دائماً ، العينين اللتين لا تدمعان ، ولكنها لم تكن تعرف بماذا تفكر تيريز . قال ابن ديغيليم ان الشتاء في الريف ليس قاسياً جداً بالنسبة الى امرأة تحب العناية بأمور المنزل : « فهناك دائماً كثير من الأمور التي يجب القيام بها في المنزل » .

« لم تسأليني عن أخبار ماري ؟

– صحيح ... حدثيني عن ماري ...

بدت آن من جديد حذرة حاقدة ، فقد كانت منذ شهور تكرر في بعض الاحيان مع امها بذات اللهجة : « كنت سأغفر لها كل شيء لأنها مريضة ، ولكنني لا استطيع ان اصبر على لامبالاتها بماري. قد تستطيعون ان تختلقوا مختلف الاعذار لأم لا تبالي بابنتها ، أما أنا فانني أجد ذلك أمراً دنيئاً » .

كانت تيريز تقرأ ما يدور في خلد الفتاة : « انها لا تحتقرني لأنني لم أسأل عن ماري قبل كل شيء . كيف استطيع ان اشرح لها ذلك ؟ انها لن تفهم انني ممتلئة بذاتي ، وانني اشغل نفسي بنفسي كلياً . أما آن فانها لا تنتظر إلا ان يكون لها أطفال كي تتلاشى فيهم ، صنيع أمها ، وسائر نساء الاسرة . ان عليّ ان اجد نفسي دائماً ، انني اجهد في ان ألحق بنفسي ... ستنسى آن فترة مراهقتها التي قضتها معي ، ومداعبات

جان ازفيدو ، منذ ان تنطلق الى صرخات الطفل الذي سيعطيها اياه هذا العفريت حتى دون ان ينزع سترته . ان نساء الاسرة يتقن الى ان يفقدن كل وجود فردي . ان هذا العطـاء الكامل للجنس ، لجميل ، انني اشعر بجمال هذا الاختفاء والتلاشي ... أما انا ، أما أنا ، ...

حاولت ألا تصغي الى ما كانوا يقولون وان تفكر بماري ، لا بد ان الصغيرة تتكلم الآن : « ربما اسلاني ، خلال بضع ثوان ، ان استمع اليها ، ولكنني سأمل فوراً ، وسأكون على عجل لرؤية نفسي وحدي مع ذاتي »... وسألت آن :

« لا بد ان ماري قد أصبحت تتكلم ؟

— إنها تردد كل ما تقول . ان ذلك لمزعج ، ويكفي ان تسمع الديك او بوق السيارة حتى ترفع اصبعها الصغيرة وتقول : « هل تسمعين الموسيقى ؟ » ما أجملها وما أظرفها » .

فكرت تيريز في نفسها قالت : « يجب أن اصغي الى ما يقال ، ان رأسي فارغ ، ماذا يروي ابن ديغيليم ؟ » وبذلت جهداً كبيراً وأرهفت اذنها.

« ان العمال الذين يعملون في أملاكي بـ(باليزاك) ليسوا شجعاناً كالعمال هنا . فهم يستخرجون اربع رتلات من صمغ الصنوبر بينمـا يصنع العمال هنا سبعاً أو ثمان .

— هل يجوز ان يكونوا كسالى ، ولصمغ الصنوبر هذا الثمن !

— هل تعلم ان العـامل اليوم يربح في بعض الايام مئة فرنك ... أظن اننا نتعب السيدة ديكيرو » ...

كانت تيريز تسند رقبتها الى ظهر الأريكة . نهض الجميع وقرر برنار ألا يعود الى سان كلير . ووافق ابن ديغيليم ان يقود السيارة ويعيدهـا السائق الى أرجلوز غداً مع امتعة برنار . وبذلت تيريز بعض الجهد لكي تنهض ولكن حماتها منعتها من النهوض .

أغلقت عينيها ، وسمعت برنار يقول للسيدة دولاتراف : « ما أسوأ تصرفات باليون وزوجه ! لأوبختّهما في شدة ... – انتبه ، لا تقس في ذلك ، يجب ألا يذهبا ، فهما قبل كل شيء يعرفان عن الاسرة من الامور اكثر مما ينبغي ، وذلك منذ زمن بعيد ، ثم هناك الاملاك ... ان باليون هو وحده الذي يعرف كل حدودها » .

وأجابت السيدة دولاتراف عن فكرة ابداها برنار لم تسمعها تيريز : « كن حذراً كذلك ، ولا تثق بها كثيراً ، راقب حركاتها ولا تدعها تدخل المطبخ او غرفة الطعام وحدها ابداً ... لا : لم يغم عليها : فهي نائمة أو متظاهرة بالنوم » .

فتحت تيريز عينيها فاذا برنار أمامها ؛ أمسك بكأس وقال لها : « اشربي هذا ، انه خمر اسبانيا وهو مقو جداً » . وبما ان من عادته ان ينفذ دائماً ما يقرر ان يفعله فقد دخل المطبخ واستشاط غضباً. سمعت تيريز باليونت تصيح بلهجتها المحلية وفكرت في نفسها: « لقد خاف برنار ، وهذا واضح ، ولكن ممَّ يخاف ? » .

ثم دخل برنار وقال لها :

« اعتقد ان قابليتك ستكون أفضل في غرفة الطعام منها في غرفتك ، ولقد اصدرت الأوامر كي توضع المائدة كسابق عهدها » .

تستعيد تيريز صورة برنار كما كان اثناء دراسته : الصديق الذي يريد ان ينتشلها من وضعها بأي ثمن كان. انه راغب في شفائها مهما كلف الامر . أجل ، فمن الجلي انه خائف . تلاحظه تيريز وهو جالس قبالتها يحرك الحطب ولكنها لم تقدر الصورة التي كانت تتأملها عيناه الواسعتان في الشعلة ، الصورة الحمراء والخضراء في مجلة الباريسي الصغير : سجينة بواتيه .

مهما تساقطت الامطار فان رمل ارجلوز لا يحتفظ بأي غدير . وفي قلب الشتاء ، يكفي أن تشرق الشمس ساعة واحدة حتى يصبح في الامكان سلوك الدروب الندية بأوراق الاشجار المطاطة الجافة ، في الخفاف.

كان برنار يصطاد طوال النهار ولكنه يعود لتناول الطعـــام فيهتم بتيريز ويعنى بها عناية لم يسبق له ان أبداها قط . كانت علاقاتهما عفوية وكان يرغمها ان تزن جسمها كل ثلاثة ايام وألا تدخن إلا سيكارتين اثنتين بعد كل وجبة طعام . وكانت تيريز بنـاء على نصيحة برنار ، تسير كثيراً : « فالرياضة أفضل المقبّلات » .

لم تعد تشعر بخوف من ارجلوز ؛ كان يخيل اليها أن اشجار الصنوبر تتباعد وتفسح الدروب فيما بينها وتشير اليها ان تهرب . قال لهـــا برنار ذات مساء : « اطلب اليك ان تنتظري ريثما تتزوج آن ، اذ ينبغي ان ترانا البلدة معاً مرة اخرى ، وتصبحين بعد ذلك طليقة » . لم تستطع ان تنام خلال الليلة التي تلتها . كان فرح قلق قد جعل عينيهـــا مفتحتين . وسمعت في الفجر أصوات العديد من الديكة التي لم يكن يبدو عليها أنها تتجاوب ، فقد كانت تصيح كلها معاً وتملأ السموات والارض بصيحات واحدة . سيطلقهـا برنار الى العـالم كما أطلق فيما مضى مراح تلك الخنزيرة التي لم يستطع ان يدجنها . ستكون آن قد تزوجت ، وليقل الناس مـا شاؤوا أن يقولوا : سيغيّب برنار تيريز في اعماق باريس ويهرب . كانا قد اتفقا على ذلك . فلن يكون هناك طلاق او فراق رسمي ؛ وسيتعللون أمام الناس بعلة صحية (« لا تسترد صحتها إلا اذا سافرت ») وسيوافيها ، في أمانة ، بحصتها من غلة الصنوبر في عيد جميع القديسين من كل سنة .

لم يكن برنار يسأل تيريز رأيهـا في مخططاته : فلتمض ولتشنق نفسها في مكان آخر . كان يقول لأمه : « لن يطمئن لي بال إلا حين تغادرني – اعرف جيداً أنها ستستعيد الاسم الذي كانت تحمله وهي فتاة... وهذا لا يمنع انه اذا بدرت منها افعال طائشة فسيتمكنون من العثور عليك » . ولكنه كان يؤكد لها ان تيريز لا تلبط إلا حين تكون مقيدة . أما اذا كانت طليقة فربما لا يكون هناك اعقل منهـا . ويجب على كل حال

ان يغامر بذلك . وكان هذا رأي السيد لاروك ايضاً . كان من الخير ، في النتيجة ، ان تختفي تيريز ، فسينساها الناس بسرعة اكبر ، وسيفقدون عادة الحديث عنها . كان من المهم ان يسود الصمت . لقد تأصلت هذه الفكرة في نفوسهم ولم يكن شيء يستطيع انتزاعها : لذا كان ينبغي ان تخرج تيريز من قيدها . ألا ما اشد ما كانوا على عجل الى ذلك !

كانت تيريز تحب هذه التعرية التي يقوم بها الشتاء ، وهو منصرم ، في الارض التي اصبحت جرداء ؛ ومع ذلك فان نسيج الاوراق الميتة القاسي يظل متعلقـــاً بأشجار البلوط . واكتشفت أن صمت ارجلوز لا وجود له . ففي أهدأ الاوقات كانت الغابة تنتحب كما يبكي المرء نفسه، وتهدهد ذاتها ، وتغفو ، والليـالي ليست إلا همساً لا يحد ، سيكون في مستقبل ايامها أفجار ، في تلك الحياة التي لا يمكن تخيلهـا ، أفجار قاحلة جداً حتى لتأسف على ساعة النهوض من النوم في أرجـــلوز ، وصيحات الديكة التي لا حصر لهـــا وحسب . ستتذكر فيما ستستقبل من أصياف ، صراصير النهار وجداجد الليل . باريس : ليس هناك اشجار الصنوبر الممزقة بل فيها الكائنات التي يرتاب فيها الانسان، جماعة الناس بعد جماعة الاشجار!

وكان مما يدهش له الزوجان ان ليس بينهما كثير من الضيق . كانت تيريز ترى ان تحمل الاشخاص يصبح ممكناً منذ نصبح على ثقة من أننا نستطيع تركهم . وكان برنار يهتم بوزن تيريز – وبأحاديثها ايضاً : فقد كانت تتحدث امامه بحرية لم تعهد فيها من قبل : « في باريس ... حين سأصبح في باريس... » ستقيم في فندق هناك ، وقد تبحث لها عن شقة . كانت تقدر انها ستتابع الدروس والمحاضرات والحفلات الموسيقية ، « وتبني ثقافتها جذرياً » . لم يكن برنار يفكر بمراقبتها ، وكان يتناول حساءه ويجرع كأسه دون أية فكرة مسبقة . وكان الطبيب بدماي الذي يلتقي بهما بعض المرات في طريق أرجلوز ، يقول لزوجه : « ان مما يدهش انه لا يبدو عليهما انهما يقومان بتمثيل مهزلة » .

١٣

في صباح حار من أصباح آذار ، حوالي الساعة العاشرة ، كانت موجة من الناس قد بدأت تتدفق وتطأ سطح سطيحة مقهى السلام حيث يجلس برنار وتيريز . رمت هذه بسيكارتها وسحقتها بعناية صنيع سكان السهول .

« هل تخشين أن تشعلي النار في الرصيف ؟ »

وجهد برنار أن يضحك . كان يلوم نفسه انه رافق تيريز حتى باريس . لا شك في انه فعل ذلك في اليوم التـــالي لزواج آن بسبب من الرأي العام – ولكنه كان يخضع بخاصة لرغبة المرأة الشابة . كان يقول في نفسه انها تمتلك عبقرية المواقف المغلوطة : وما دامت على قيد الحياة ، فانه في خطر من أن يتنازل هكذا الى تصرفات غير معقولة ، وكانت هذه الحمقاء تحتفظ بمثل هذا التأثير على نفس جد متزنة ومتينة كنفسه . وفي الفترة التي كان سيفترق فيها عنها ، لم يستطع أن يغالب كآبة لم تخالجه قط : ولم يكن لغرب عليه من هذا النوع من الشعور ، يثيره فيه الآخرون (ولا سيما تيريز ... كان هذا امراً يستحيل تخيله) مـا كان أنفد صبره للهرب من هذا الارتبـاك : لن يتنفس بحرية إلا في قطـــار الظهيرة ،

وستنتظره السيارة هذا المساء في لانجون . وسرعان ما تبدأ أشجار الصنوبر بالظهور بعد خروج القطار من المحطة على طريق (فيلندرو) . كان يتأمل وجه تيريز ، وأهدابهـا التي تتعلق بعض المرات بوجه بين جماعة الناس ، فتتبعه حتى يختفي . قال لها فجأة :

« تيريز ... أود أن اسألك » ...

أدار عينيه ، اذ لم يستطع قط ان يتحمل نظرة هذه المرأة وأضـاف بسرعة :

« كنت أود أن أعرف . . . أكان ذلك لأنك كنت تحتقرينني ؟ ألأنني كنت أفزعك ؟ »

كان يصغي الى كلماته نفسهـا بدهشة وانزعاج . وابتسمت تيريز ثم حدجته بنظرة رزينة : ان برنار يطرح عليهـا سؤالاً آخر الامر ! وذات السؤال الذي كان يمكن ان يتبادر الى ذهن تيريز اول ما يتبادر لو كانت في موضعه . ان هذا الاعتراف الذي اعدته خلال مدة طويلة ، في العربة ، على طريق نيزان ، ثم في قطـار سان كلير الصغير ، ليلة التنقيب تلك ، وذاك البحث الدقيق وذاك الجهد الذي بذلته لتعود الى منبع أعمالها — ربما حان الوقت أخيراً لأن تنال ثمن تلك العودة المضنية الى نفسها . لقد اقلقت برنار دون ان تشعر ، وهـاهوذا يسألها سؤال انسان لا يرى في وضوح . لقد اصبح أقل بساطة — أي أقل حقداً . ألقت تيريز على هذا الرجل الجديد نظرة ملاطفة تكاد تكون نظرة الأمومة ، ومع ذلك فقد أجابته بلهجة ساخرة :

« ألا تعرف اني فعلت مـــا فعلت بسبب صنوبراتك ؟ نعم ، لقد اردت ان أمتلك وحدي كل ثروتك من أشجار الصنوبر » . .

فهز كتفيه : .

« لم أعد أؤمن بذلك ، هذا اذا كنت قد آمنت به يومـاً . لمـاذا

فعلت هذا ؟ ان في وسعك ان تقولي لي ذلك الآن » .

كانت تنظر في الفراغ : ففوق هذا الرصيف على ضفة نهر من الوحل والاجساد المتعجلة ، في الفترة التي ستلقي بنفسها فيه وتقاومه أو ستذعن على الغوص فيه ، لمحت نوراً وفجراً : لقد تخيلت عودة الى البلدة الغامضة الكئيبة – حياة كاملة من التأملات والسعي نحو الكمال في صمت ارجلوز : المغامرة الداخلية ، والبحث عن الله ... خيّل الى أحد المراكشيين الذي كان يبيع السجاد والاطواق انها تبسم له فاقترب منها .

أجابت تيريز باللهجة الساخرة نفسها :

« سأجيبك عن سؤالك : « لا اعرف لماذا فعلت ذلك » . اما الآن فقد أعرف السبب ، تخيل ذلك ! ربما كان ذلك كي أرى في عينيك كآبة وفضولاً – وقلقاً ايضاً : كل ما اكتشفته فيهما منذ ثانية » .

فزمجر بنبرة ، ذكّرت تيريز بالرحلة التي قاما بها بعد العرس :

« ألن تكفي عن هزلك في كل المواقف... قولي لي في جد : لماذا ؟

توقفت عن الضحك ، وسألته بدورها :

« إن رجلاً مثلك يا برنار يعرف دائماً كل بواعث تصرفاته ، أليس كذلك ؟

– حتماً ... لا شك .. أو هذا ما يبدو لي على الأقل .

– لطالما اردت ألا يظل شيء خافياً عنك ، لو كنت تعرف لأي عذاب عرضت نفسي ، كيما ارى في وضوح ... غير ان كل الاسباب التي يمكنني ان اقدمها لك ، ما ان ألفظها حتى تبدو لي مختلقة » ...

عيل صبر برنار :

« اخيراً ، هناك مع ذلك يوم قررت فيه ... أين قمت بتلك البادرة ؟

– أجل ، يوم الحريق الكبير في مانو ».

كانا قد اقتربا بعضهما من بعض وهما يتحاوران بصوت منخفض . في

ملتقى شوارع باريس هـذا ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، في هـذا الهواء الرطب جداً الذي يعبق بتبـغ مـــا وراء البحار ، ويحرك الستائر الصفر والحر ، وجـدت تيريز ان من الغريب بعث بعد الظهر المرهق ذاك ، والسماء مخنوقة بالدخان ، والشفق الاسود ، وتلك الرائحة النفاذة المنبعثة من المشاعل التي تنثرهـــا الاخشاب المحترقة ، وقلبهـا الناعس ، حيث راحت الجريمة تتجسد شيئاً فشيئاً .

« اليك كيف حدث هذا : كان ذلك في غرفة الطعام ، المظلمة دائماً عند الظهيرة ، كنت انت تتحدث لافتـاً رأسك نحو باليون ، ناسياً ان تحسب عدد النقاط التي كانت تسقط في كأسك » .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار ، اذ كانت منتبهة أشد الانتبـاه لكيلا تهمل ، من ذلك الظرف ، أدق التفاصيل فيه . إلا انها سمعته يضحك ، وعند ذاك تفحصته : نعم لقد كان يضحك ضحكته البليدة ، كان يقول : « كلا ! من تظنينني ! » لم يكن يصدقهـا (ولكن هل كان مـا تقوله أمراً يمكن تصديقه في الواقع ؟) ، وتهانف برنار فعرفت فيه برنار ذاك الواثق بنفسه الذي لا يسمح لأحد ان يخدعه ، لقد عـاد الى قوقعتـه وشعرت انها قد ضاعت من جديد ؛ كان يقول ساخراً منها :

«اذن فقد راودتك الفكرة ، هكذا ، فجأة ، بفعل الروح القدس ؟»

فليكره نفسه انه سأل تيريز ! كان في ذلك ضياع كل ربح جناه من الاحتقار الذي رمى به هذه الحمقاء : فرفعت رأسها ، يا إلهي ! لماذا تخلى عن هذه الرغبة المفاجئة في ان يفهم ؟ كأن هناك مـا يمكن فهمه بالنسبة الى هاتيك المختـلات الشعور ! لقد غاب ذلك عن ذهنه ، لم يكـن قد فكر ...

« اصغ اليّ يا برنار ، ليست غايتي مما أقوله لك ان اقنعك ببراءتي ، فأنا بعيدة عن ذلك كل البعد » .

لقد تحمست حماسة غريبة لاتهام نفسها: وكان لا بد لمن يراها تتصرف تصرف من يمشي في نومه ، ان يقدر انها قد تقبلت ذلك في قلبها منذ شهور ، واقتاتت بالافكار المجرمة . ومن ناحية أخرى فبعد ان تمت البادرة الاولى بأي حنق صافٍ تابعت مخططها ! وبأية صلابة !

« لم أكن اشعر اني قاسية إلا حين تتردد يدي . كنت احنق على نفسي أني أطيل آلامك . كان يجب ان أمضي حتى النهاية وبسرعة ! كنت اذعن لواجب رهيب . نعم ، لقد كان ذلك كواجب عليّ » .

قاطعها برنار قال :

«كفاك ترديد جمل لا معنى لها ! حاولي ان تقولي لي ، مرة ولحدة ، ماذا كنت تريدين ! انني أتحداك .

– ماذا كنت اريد ؟ لا شك ان من الاسهل ان اقول ماذا كنت لا أريد ؛ لم اكن اريد أن امثل دوراً واقوم بحركات ، وأتلفظ بتعابير ، وانكر في كل لحظة تيريز التي ... لا يا برنار ، اصغ اليّ ، انني لا اسعى إلا الى قول الحقيقة . كيف يحدث ان كل ما ارويه لك هنا يتخذ صدى خاطئاً جداً ؟

– أخفضي صوتك : فهذا السيد الذي أمامنا قد التفت الينا » .

لم يكن برنار يتمنى إلا ان يخلص من هذه النفسية . ولكنه كان يعرف هذه الحمقاء : فهي تستسلم بكل قلبها لتمحص الموضوع وتعقده لكي يضيع في تفاصيله . وادركت تيريز ايضاً ان هذا الرجل الذي اقترب منها زهاء ثانية قد ابتعد عنها الى الابد ، ومع ذلك فقد ألحت ، وحاولت بابتسامتها الجميلة ، وأعطت صوتها بعض النبرة المنخفضة البحاء التي كان يحبها فيها .

« ولكنني أشعر الآن يا برنار ان تيريز التي كانت تسحق ، غريزياً ، سيكارتها لأن أقل شيء يكفي ليحرق المشيم – ان تيريز التي كانت تحب

ان تعد صنوبراتها بنفسها ، وتصفي حساب وارداتها من الصمغ — وتيريز التي كانت فخوراً بأن تتزوج فتى من اسرة ديكيرو وان تحتل مكانها في حصن اسرة محترمة في المنطقة والتي كانت مسرورة آخر الامر بأن « تترتب » كما يقول الناس . ان تيريز تلك لا تقل حقيقة وحياة عن تيريز الأخرى ؛ لا ، لا : ليس هناك اي سبب لأن يُضحي بالواحدة في سبيل الاخرى .

— أية أخرى تعنين ؟

لم تعرف بماذا تجيب ، نظر الى ساعته فقالت له : « يجب مع ذلك ان اعود بعض المرات من أجل شؤوني ... ومن أجل ماري .

— أية شؤون ؟ انا الذي سأتولى ادارة املاكنا المشتركة . لن نعيد البحث فيما اتفقنا عليه أليس كذلك ؟ ستحتلين مكانك في كل الاحتفالات الرسمية حيث ينبغي ان يرانا الناس معاً من اجل الحفاظ على شرف الاسرة ولصالح ماري . ان حفلات الزواج في اسرة عديدة الافراد كاسرتنا تتوفر دائماً والحمد لله . وكذلك من الجنازات . ان ما يدهشني ، اول ما يدهشني ، ان يظل العم مارتان على قيد الحياة حتى الخريف . وسيكون موته مناسبة لك ، ما دام يبدو أنك قد مللت منذ الآن »...

قرّب موظف يمتطي جواداً صفّارة من شفتيه ، وأزاح حاجزاً غير مرئي ، وسارت كتيبة من المشاة كي تجتاز الطريق الاسود قبل أن تغطيه موجة السيارات الصغيرة . كان عليّ أن أذهب ذات ليلة الى سهل الجنوب كما فعل داغيرّ . كان عليّ ان اسير بين اشجار الصنوبر غير النامية في تلك الارض السيئة . – وان اسير حتى تستنفد قواي . ما كنت املك الشجاعة كي أبقي رأسي مغموراً في ماء البحيرة (كما فعل ذاك الراعي من أهالي ارجلوز ، في العام الماضي ، لأن كنته لم تكن تعطيه ما يأكله) . ولكنني كنت استطيع ان اضجع في الرمل واغلق عيني ... صحيح ان

هناك الغربان والنمال التي لا تتريث »...

تأملت الجدول الانساني ، هذه الكتلة الحية التي ستنبسط تحت جسدها وتلفها وتحملها . لم يعد هناك شيء تستطيع ان تقوم به . سحب برنار ساعته مرة أخرى .

« الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً : لقد حان وقت المرور بالفندق ...

– لن يضايقك الحر كثيراً في سفرك .

– بل يجب أن أتدثر هذا المساء في السيارة ».

وتخيلت الطريق التي سيسلكها ، وظنت ان الهواء البارد يغسل وجهها ، هذا الهواء الذي يعبق برائحة المستنقع ونشارة الصمغ ونار العشب ، والنعنع والضباب . نظرت الى برنار وارتسمت على شفتها تلك الابتسامة التي كانت تحمل الناس فيما مضى على القول : « لا يمكن ان نزعم انها جميلة ، ولكنها السحر نفسه » . لو قال لها برنار : «انني اغفر لك ، تعالي ...» لنهضت وتبعته . ولكن برنار الذي أثاره شعور بالتأثر ، في مدى لحظة ، لم يعد يشعر إلا بالفزع من الحركات غير المألوفة ، والكلمات المخالفة لتلك التي اعتاد ان يتبادلها كل يوم . كان برنار « على الطريق » مثل عرباته : كان بحاجة الى عاداته القديمة ، وإما استعادها هذا المساء نفسه ، في قاعة الطعام بسان كلير ، فسيعرف طعم الهدوء والسلام .

« اريد للمرة الاخيرة ان تصفح عني يا برنار » .

لفظت هذه الكلمات في كثير من الجلال ومن غير اي امل – آخر مسعى تبذله ليستمر الحديث بينهما . ولكنه احتج ، قال : « فلنكف عن خوض هذا الموضوع »...

« ستشعر انك وحيد حقاً: فأنا أشغل مكاناً دون أن أكون هنالك ؛ ومن الخير بالنسبة اليك ان أكون ميتة » .

رفع كتفيه قليلاً ورجاها ، وهو شبه فرح ، « بألا تهتم به » .

« ان لكل جيل من امرة ديكيرو عازبها الشيخ ! ولا بد من ان أكون انا ذلك العازب الشيخ ! انني أتمتع بكل الصفات المطلوبة . (لست انت التي تكذبينني في ذلك ؟) انني لا آسف على شيء سوى اننا انجبنا طفلة ؛ فسينقرض اسم الامرة . والحق أننا ، لو ظللنا معاً ، لما أردنا ان يكون لنا طفل غيرها ... فالنتيجة اذن ان كل شيء على ما يرام ، لا تزعجي نفسك ، ابقي هنا » .

وأشار الى سيارة اجرة وعاد ادراجه ليذكر تيريز بأنه دفع ثمن الشراب في المقهى .

. . .

نظرت تيريز طويلاً الى قطرة (البورتو) الباقية في قعر كأس برنار ؛ ثم عادت تتفحص السابلة من جديد . كان يبدو على بعض منهم انهم ينتظرون فيذهبون ويجيئون . والتفتت احدى النساء مرتين وابتسمت لتيريز . (أهي عاملة أم متنكرة بثياب عاملة ؟) . كانت تلك الساعة موعد انصراف عاملات الخياطة . لم تفكر تيريز بمغادرة المكان ، لم تكن تشعر بملل ولا بكآبة . لقد قررت ألا تذهب بعد ظهر هذا اليوم لرؤية جان ازفيدو – وتنفست الصعداء ؛ فلم تعد ترغب في رؤيته : لكيلا تتكلم ! وتبحث عن تعابير ! كانت تعرف جان ازفيدو ، اما الكائنات التي تتمنى ان يقتربوا منها فلم تكن تعرفهم . كانت تعرف عنهم فقط انهم لا يطالبون بكثير من الكلام . لم تعد تيريز تخشى العزلة . بحسبها أن تظل جامدة : كجسدها ، متمددة في سهل الجنوب وتجذب اليها النمال والكلاب ، وبدأت تشعر هنا ، حول جسدها ، بحركة غامضة ودوران . أحست بالجوع ، فنهضت ورأت في المرآة الشابة التي كانت : ان ثوب السفر هذا ، المُحكم عليها ، ليلائمها جداً . ولكنها كانت تحتفظ من الايام

التي قضتها بأرجلوز بوجه هزيل : فوجنتاها ناتئتان جداً ، وهـذا الانف القصير . وتفكرت : « ليس لي من عمر » . تناولت طعـام الغداء (كما فعلت ذلك اغلب الاحيان في احلامها) في شارع رويال . لماذا تعود الى الفندق ما دامت لا تشعر برغبة في ذلك ؟ أشاعت فيها نصف زجاجة من خمر بوبي رضي حاراً . طلبت سكائر ، فمدّ لها شاب كان يجلس الى الطاولة المجاورة، قداحته مشتعلة وابتسمت له . طريق فيلندرو ، في المساء ، بين اشجار الصنوبر المشؤومة ، منذ ساعة تقريبـاً ، كانت تتمنى ان تغور بجانب برنار ! مـا همّ ان تحب هذه البلدة أو تلك ، أشجار الصنوبر أو اشجار القيقب ، البحر أو السهل ؟ لم تكن ترغب إلا في الاحياء ، في الكائنات المصنوعة من لحم ودم . « ليست مدينة الحجارة ولا المحاضرات ولا المتاحف موضع حبي ، انني احب الغـابة الحية التي تتحرك فيما بينها ، والتي تحفرها العواطف الاشد جنوناً من أية عاصفة . ولم يكن انين اشجار الصنوبر في ارجلوز ، إبان الليل ، مثيراً ، إلا لأنه يشبه أنيناً انسانياً » .

كانت تيريز قد شربت قليلاً ودخنت كثيراً ، فراحت تضحك وحدها كالقديسة . وطلت بالمساحيق خديها وشفتيها في أناة ؛ ولمّا بلغت الشارع ، سارت على غير هدى .

عويدات للنشر والطباعة ٢٠٠٨/١١٠٩

FRANÇOIS MAURIAC

THERESE DESQUEYROUX

Traduction arabe

Georges Salem



EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth-Liban

تيريز ديكيرو

يدور موضوع هذه الرواية حول امرأة قاتلة مسمّمة. تيريز ديكيرو فتاة كسائر الفتيات أو هكذا تبدو على الأقل... مع ذلك كانت تشعر بغم وقلق مظلمين، لم تكن تعرف لهما معنى. تزوجت من برنار لأنه كان شقيق صديقتها الحميمة من جهة، ومن جهة ثانية، لأنه كان يملك ألفي هكتار من الأراضي المزروعة بأشجار الصنوبر. كان حب التملك في دمها لا يفارقها. بالواقع، لم تكن شقية بهذا الزواج، كما لم تكن سعيدة... ربما لم يكن باستطاعتها أن تقدّر إلى أي مدى كانت بحاجة إلى العشق والهوى، خاصة بعد أن كانت تقرأ رسائل صديقتها - ابنة حميها آنّ - المتيمة بالشاب أزفيدو؛ هذه الرسائل التي بلغت فيها عاطفة الحب المتأججة حدًّا أدركت معه إلى أي درجة تفتقر هي إلى هذه العاطفة والأحاسيس. وهكذا أصبحت حياتها تنوء عليها يوماً بعد يوم، فلم تعد تستطيع أن تنسجم مع برنار، هذا الجلف الذي
إلا بصيده وصنوبراته، وساعدتها الظروف للتقرب
فأصبح بالنسبة لها رمز حياة حرة... وهكذا بد
الشيطانية تغزو مخيلتها فرافقتها لتهدم حي
تيريز ديكيرو مخلوقة غريبة، تجذبها أ
فترتكبها وهي لا تكاد تشعر بشناعتها، ف
يحمل إليها الشر نوعاً من الدوار فيصبح
لا يقاوم...

ISBN 978-9953-28-095-9
9 789953 280950

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban



عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان